

فنون الأذب العربي

الفن الغنائي

٢

# السرَّاء

بقلم

الدكتور شوقي ضيف



دار المعارف



0007102

Bibliotheca Alexandrina



# الزَّمان



فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

٢

# الزَّما

بقلم

الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الرابعة



دار المعارف



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### مقدمة

الرثاء من الموضوعات البارزة في شعرنا ، إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الدار الآخرة ، وهو بكاء يتعمق في القدم منذ وجد الإنسان ، ووجد أمامه هذا المصير الحزن : مصير الموت والفناء الذي لا بد أن يصير إليه ، فيصبح أثراً بعد عين ، وكأن لم يكن شيئاً مذكوراً .

ولكل أمة مراثيها ، والأمة العربية من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم من المراثي ، وهي تأخذ عندها ألواناً ثلاثة ، هي النذب والتأبين والعزاء . أما النذب فيكاه الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت ، فيئن الشاعر ويتفجع ، إذ يشعر بلطمة مروعة تصوب إلى قلبه ، فقد أصابه القدر في ابنه أو في أبيه أو في أخيه ، وهو يترنح من هول الإصابة ترنح اللبيح ، فيبكي بالدموع الغزار ، وينظم الأشعار ييث فيها لوعة قلبه وحرقة . وقد ينظر فيرى الموت مطلاً نضب عينيه ، وهو ينحدر راغماً إلى حفرة ، ولا ناصر له ولا معين ، ويصيح ولا ينفعه صياحه ، فقم الهاوية يقترب منه ويوشك أن يلتقمه ، فيبكي ويلحن بكاءه على قبارة شعره تلحينا مشجياً كله آلام وحسرات .

والشاعر لا يندب نفسه وأهله فحسب ، بل يندب أيضاً من ينزلون منه منزلة النفس والأهل ممن يحبهم ويؤثرهم ، ومراثي الشيعة من خير الأمثلة التي تصور ذلك ، إذ نجدهم يرسلون الدمع مدراً كأنه لا يريد أن يجف ، وتسيل كلماتهم وأشعارهم الحزونة ، وكأنها تسيل من جروح لا ترقأ في القلوب والأفئدة . ومثل مراثي الشيعة مراثي الدول ومراثي الأوطان حين تسقط مهيضة

الجناس في يد الأعداء ، فينوح عليها الشعراء مصورين محنتها الكبرى وكارثتها العظمى .

وليس التأين نواحاً ولا نشيجاً على هذا النحو ، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص ، إذ ينجّر نجم لامع من سماء المجتمع ، فيشيد به الشعراء منوهين بمزلاته السياسية أو العلمية أو الأدبية ، وكأنهم يريدون أن يصبوا خسارة الناس فيه . ومن هنا كان التأين ضرباً من التعاطف والتعاون الاجتماعي ، فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه هو وإنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها ، ولذلك يسجل فضائله ويلجأ في هذا التسجيل وكأنه يريد أن يحفرها في ذاكرة التاريخ حفرأ حتى لا تُنسَى على مر الزمن .

والعزاء مرتبة عقلية فوق مرتبة التأين ، إذ ترى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التي هو بصدددها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة . وقد ينتهي به هذا التفكير إلى معان فلسفية عميقة ، فإذا بنا نجوب معه في فلسفة الوجود والعدم والخلود . ومردّد هذا كله أن الحياة ظل لا يدوم . عبارة يردددها الشاعر الجاهلي ويحللها الشاعر العباسي ، وما يزال الشعراء يحلّلون فيها متحدثين عن الخلود أو عن الفناء .

وتلك هي ألوان الرثاء في شعرنا حاولنا أن تصورها وأن نضم بديتها إلى نهاياتها في خط طويل من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث . ولم تعرض ذلك في تفصيل ، وإنما عرضناه عرضاً مختصراً بقلوب ما تسمح به حلقة قصيرة في هذه السلسلة التي نتحدث في إيجاز عن فنون شعرنا الغنائي ، والله الهادي إلى التوفيق .

القاهرة في ٢٨ من مارس سنة ١٩٥٥

شوقي ضيف



# تمهيد

## ١

### الرثاء في أدبنا العربي

عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلي ، إذ كان النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى ، كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبّنين لهم مُثْنين على خصالهم ، وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت ، وأن ذلك مصيرٌ محتوم .

والصور التي بين أيدينا من هذا الرثاء صور راقية ، إذ تراها تعبر عن شعور عميق بالحزن والألم ، ومثل هذا التعبير تسبقه مراتب كثيرة من تعبيرات ساذجة عن الموت والموتى . ولكن هذه التعبيرات لا نجدها في الشعر الجاهلي ، لأنه كان قد فارق المراحل الأولى ، وانتهى إلى مرحلة فنية راقية .

ولا نرتاب في أن الرثاء بدأ عند العرب كما بدأ عند كثير من الأمم الأخرى بصورة تشبه أن تكون سخرًا حتى يطمئن الميت في مرقدِهِ ، ولا تصيب روحه الأحياء من ورائه بشرٌ ، ثم أخذ يفقد هذه الغاية مع الزمن ، وما زال حتى انتهى إلى الصور الجاهلية من الإفصاح عن إحساس الناس العميق بالحزن قبيل الموت ، ومحاولة ذكراهم بتمجيدهم وبيان فضائلهم التي ماتت بموتهم ، مع التفكير في القدر وقصور الناس أمامه ، وعبث بهم ولعبه بحياتهم وموتهم .

وقد يكون من أقدم صور الرثاء عندهم ما نقش على قبور الأقبال والأذواء في اليمن والأمرء في الحيرة وعند الغساسنة في الشام ، فعلى قبورهم كانوا يكتبون أسماءهم وألقابهم تخليداً لذكراهم وتمجيذاً لأعمالهم ، وكأنّ هذه هي الصورة الأولى للتأيين والإشادة بفضائل الميت ، على أنها صورة ساذجة . أما الصورة الجاهلية للتأيين فصورة معقدة ، لا بما فيها من طول فحسب ، بل بما فيها

أيضاً من وسائل فنية كثيرة ، إذ نرى شعراء الرثاء يهتمون بقوالب رثائهم وصيغته وينوعونها تنوعاً واسعاً ، كما نجدهم يهتمون بصورهم واستعاراتهم وتشبيهااتهم ، مع العناية التامة بموسيقاهم وأوزانهم والملاءمة بين أنغامهم وشعور الحزن الذي يتعمق قلوبهم وأفتلتهم .

وكان يساهم في هذا الفن النساء والرجال ، بل ربما كان للنساء الحظ الأوفر من القيام عليه ، إذ كنَّ هن اللاتي يَقُصْنَ على نذب الميت أياماً ، بل وربما امتد قيامهن عليه سنوات ، وكنَّ يَخْلُقْنَ شعورهن ويلطمنن صدورهن بأيديهن وبالنعال والجلود أحياناً . وقد يقمن بذلك في مجالس القبيلة وعلى القبور وفي المواسم العظام كموسم عسكاظ .

وطبيعي أن يتفوق النساء على الرجال في نذب الموتى والنواح عليهم ، لأن المرأة أدق حساً وأرق شعوراً ، وأيضاً فإن حياة الرجال في العصر الجاهلي كانت تقوم على القتل وسفك الدماء والتفاخر بالشجاعة والبطولة ، فكانوا يأنفون أن يقدوا للبكاء وذرف الدموع كالنساء ، بل لقد ذهبوا يظهرن التجلد والصبر على من يموت منهم ، يقول عمرو بن معد يكرب :

كَمْ مِنْ أَخٍ لِي حَازِمٍ بَوَّأَتْهُ يَدِي لَخْدًا  
أَعْرَضْتُ عَنْ تَذْكَارِهِ وَخُلِقْتُ يَوْمَ خَلَقْتُ جَلْدًا

على أن الرجال لم يكونوا جميعاً مثل ابن معد يكرب ، فوراءه كثيرون كانوا يتدبون وينوحون ، وخاصة على أبنائهم وأفلاد أكبادهم .  
ونذب الموتى والنواح عليهم هو الصورة الأولى في الرثاء الجاهلي . ونجد بجانب هذه الصورة صورة ثانية من تأبين الميت وعند فضائله والثناء على خصاله والإشادة بصفاته . وتكثر هذه الصورة في تأبين الأصدقاء والأشراف ، بل قد نجد لها في رثاء الإخوة . وربما كان السبب في ظهورها ثم شيوعها أن كثيراً ممن كانوا يرثونهم كانوا يَقْتُلُونَ في حروبهم الدائرة ، فأرادوا أن يبينوا عظم المصيبة والخسارة بفقدهم . وترافق هاتين الصورتين صورة ثالثة من العزاء والصبر

على نواثب الدهر وحيداً ثانه ، فالدنيا دار فراق لا دار خلود وبقاء ، وكل نفس فيها ذائقة الموت ، فالموت حوض يردّه الجميع ، وليس أمام الناس إلا الاستسلام للأقدار وما يأتي به القضاء .

ولما انتهت دولة المناذرة في الحيرة رثوها ، واستخرجوا منها العيبر والعظات على أن كل ما في الدنيا زائل وأن البكاء لا يردّ هالكاهلك ولا ميتا مات . فالأقدار بيدها كينانها وقوسها ، ولا تزال ترمى بالسهم الأفراد والجماعات والقبائل والدول .

وهذه الصور الجاهلية للرثاء استمرت في أدبنا العربي مع عصوره المختلفة ، تارة تنمو وتارة تتطور ، تحت تأثير نموّ العقل العربي من جهة ، وتطور حياة العرب واختلاف الأحداث عليها من جهة ثانية ، ولكنها في جماتها تترد إلى هذه الصور الجاهلية ، وتشتق منها كما يشتق الفرع من أصوله .

## ٢

### في الآداب العالمية

الرثاء يقترن بالموت ، وليس في العالم أمة لم تعرف الرثاء كما أنه ليس فيه أمة لم تعرف الموت ، فالرثاء وجد عند كل الأمم والشعوب بادية وراقية متحضرة . ونحن نجد صوراً مبثوثة منه في الأدب الفرعوني القديم ، تارة منفصلة ، وتارة متصلة ببعض القصص كقصة الآلهة : أوزيريس وسيت وإيزيس ، فإنه حين اعتدى سيت على أخيه أوزيريس وقطعه إرباً ، وألقى به في صندوق باليم بكته إيزيس أخته وزوجته بكاء حاراً ، وكان المصريون ييكونه معها في أعياده من كل غام . ولا ريب في أن ما نراه الآن في المآتم المصرية من « تعداد » النساء ولطمهن وتلطيف وجوههن ورءوسهن بالطين يرجع إلى أقدم العصور ، ونفس تقاليدنا في الاحتفال بالموتى والعزاء فيهم ، كل ذلك فيه آثار من آباءنا الأولين .

والرثاء مكان بارز في الشعر اليوناني القديم ، إذ اشتهر به شعراء مختلفون مثل أرخلوكوس وسافو وسيمونيدس ، وينبغي أن نشير هنا إلى أن كلمة « إيليجي » *Elegy* اليونانية التي تطلق عند الغربيين المحدثين على المراثية لم تكن تطلق هذا الإطلاق الحديث عند اليونان ، بل كانت تطلق على وزن خاص من أوزان الشعر الغنائي ، وقد يكون موضوعها سياسة أو أخلاقاً أو غير ذلك من موضوعات . على كل حال عرف اليونان القدماء الرثاء وشاع عندهم ، ونقله عنهم الرومان بين ما نقلوه من فنون شعرهم وألوانه المختلفة .

ومعروف أن الأدب الغربي الحديث احتذى الأمثلة اليونانية والرومانية ، ومن هنا شاع فيه الرثاء على نحو ما شاع عند اليونان والرومان ، فإذا سرنا مثلاً مع الشعر الإنجليزي وجدنا تشوسر « أبا هذا الشعر » ينظم قصيدته الطويلة في زوجة « اللوق لانكستر » وقد سماها « كتاب اللوق » . وما زال الشعراء الإنجليز ينظمون مراثي مختلفة حتى بلّغهم ملتن بمراثيته لسيداس « *Lycidas* » وفيها يرثي رفيقاً من رفاقه في الجامعة ابتلعه اليم ، وسماه باسم ريفي هولسيداس ، ونحا بقصيدته فيه منحى الشعر الريفي عندهم . ومن أروع المراثي الإنجليزية أدونس « *Adonais* » لشلي ، وهي في رثاء الشاعر كيتس الذي مات في ريعان شبابه ، وأدونيس في الأساطير الإغريقية شاب جميل وقعت في شباك جماله فينوس ، فاتخذته شلي رمزاً لصاحبه . ولتنيسون مراثية طويلة في صديق له سماها في الذكرى « *In Memoriam* » وقد نسج فيها أفكاراً رائعة عن الحياة والموت . ومن المراثي الإنجليزية البديعة مراثية توماس جراي وقد دعاها « مراثية كتبت في فناء كنيسة ريفية » وفيها لا يرثي شخصاً بعينه ، وإنما يرثي الطبقة الكادحة في الريف التي يموت أفرادها دون أن ينالوا حظاً من المحبة والشهرة .

وفي الأدب الفارسي مراث كثيرة ، وهم يحتنون فيها أمثلة الشعر العربي ، وخاصة مراثي آل البيت ، فلمهم فيها روائح لا تحصى . ويلقى الأدب التركي بالأدب الفارسي والعربي جميعاً في هذا الباب . واشتهر في عصر قريب منا شاعرهم عبد الحق حامد بديوانه « مقبر » وهو يرثي فيه زوجه التي سبقته إلى الرفيق الأعلى .

وعلى هذه الشاكلة لا توجد أمة مهما أوغلت في البداوة أو صعدت في مراقى الحضارة إلا وهى تبكى موتها بكاء يصور حزن الإنسان على أخيه ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه يصور حزنه على نفسه ، فالقصة واحدة وكل يوم يسقط فصل من فصولها ، ومن يبكى اليوم غيره يصبح بعد قليل من الزمن محمولا إلى نفس المصير .

# فصل الأول

## الندب

١

### معنى الندب

الندب هو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة ، إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع .  
وقد عرف العرب منذ العصر الجاهلي المآثم حيث يجتمع النساء للصياح والعويل على الميت ، وظل ذلك في الإسلام ، إذ أباحه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم محرماً ما كان يقتون به من كتمش للوجوه بالخلود وحلق للرءوس . وإنما أباحه لما فيه من تنفيس عن أهل الميت وشفاء لمصابهم فيه ، ويروى الرواة أنه لما بكت نساء المدينة على قتلى غزوة أحد من ذويهن قال الرسول : « لكن حمزة بن عبد المطلب لا يكيه أحد » ، وكان قد قتل في هذه الغزوة ، فأصبح سنة في نساء المدينة أن لا يقمن مأتماً على مر العصور إلا بدآن بكاءهن بحمزة عم الرسول .

وتجد النساء الندابات في الجاهلية يؤلفن الأشعار التي يندبن بها موتاهم ، ومع مضي الزمن انفصلت صناعة الندب عن صناعة الشعر ، فأصبح هناك محترفون ومحترفات يُعولون في المآثم بأشعار تصنع لهم . والغريضة مغنى مكة المشهور في العصر الأموي هو أهم من احترفوا صناعة الندب في عصره ، فكان الشعراء إذا مات شريف أو شريفة صنعوا له أبياتاً ينوح بها ، وقالوا إنه

كان يتفوق تفوقاً ظاهراً على جميع الداحة والبكاين في الحجاز لما امتاز به من صوت حزين يمتلئ بالأسى والشجى .

وكان الغرييض وغيره ينوحون على نقر الدفوف وضرب الصنوج ، حتى يصبح النواح شيئاً مفزعاً . وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني يزخر بأصوات محزنة غشيت في المآتم ، وكلها ذات رُقْمٍ موسيقية مضبوطة .

ومهما شَرَقْنَا في العالم العربي أو غَرَبْنَا وجدنا هذا الندب والنواح ، وهو في أصله إنما يكون على الأهل والأقارب ، وقد يبكي الشاعر نفسه ساعة الاحتضار حين يحس بالموت ، وقد كثر له عن أنبيائه ، فيفزع إلى بعض أبيات يصور فيها كارثته ، أو يصور ألمه وأحزانه على فراق فردوسه الأرضي .

وقد يتحول هذا الندب والنواح إلى مآتم تدور مع الأعوام والسنين ، وكأنها مأساة كبيرة تمثل من حين إلى حين . ويتضح ذلك في رثاء آل البيت ، فقد بكاهم شيعتهم بكاء مراراً ، وعقدوا لهذا البكاء مواسم عينوها في أيام السنة ، وأحالوها حزناً وسواداً .

ولم يبك شعراؤنا الأفراد والأُمَمَ فحسب ، بل بكوا أيضاً الدول التي دالت ، والبلدان التي تخربت أو امتدت إليها أيدي الصليبيين أو مسيحي الأسبان ، فهي الأخرى لها حظها في الندب والبكاء واللوعة والأثين .

## ٢

### نَدْبُ الْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ

لعل أقدم صور الندب والنواح في شعرا العربي هي صورة نَدْبِ الْأَهْلِ وَالْأَقَارِبِ والنواح عليهم . وللمرأة الجاهلية في هذا المجال القيسط الأكبر والنصيب الأوفر ، إذ كانت تندب أباهما وإخوتها ، فما تزال تنوح على من يتوفى منهم حتف (١) ألقه ، وعلى من يموت قعصاً (٢) بالرماح والسيوف ،

(١) الموت حتف الأنف : الموت على الفراش .

(٢) قعصه بالرمح أو السيف : قتله في مكانه .

وما أكثر من كان يموت منهم في حروبهم الدائرة على المراعى .

وكلنا نعرف كثرة أيامهم ووقائعهم في الجاهلية ، وكان كل يوم يختلف وراءه صرعى ، وكل صريع تنديه النوادب من أهله وقبيلته . فكان يلطمن ويخمشن وجوههن ويحلقن رءوسهن ويشققن جيوبهن ويقرعن صدورهن على من طوح به الأعداء أو بلوحت به الأقدار إلى مهاوى القبور .

وكتاب « مرآئ شواعر العرب » للويس شيخو يصور عتدى ما قلعت به المرأة في هذا الجانب المظلم الحزين ، إذ كانت هي التي تعبر عن ألم القبيلة وحزنها على أبطالها ، وخاصة عقب الأيام والحروب ، ولم تكن تقصد إلى إظهار الحزن فحسب ، بل كانت تقصد أيضاً إلى إثارة القبيلة على خصومها .

وأشهر من بكت واستبكت في الجاهلية النساء ، إذ قتل أخوها معاوية في بعض غاراته ، فعقدت عليه مأتما ضخماً من النواح ، وأثار ذلك أخاها صفراً ، فثار له ، ولكنه جرح جرحاً بليغاً أدى إلى وفاته . فعادت إلى نواحها بأشد مما صنعت على أخيها معاوية ، وكأما سحر صفراً قلبها ، وأشعل صدرها بشعلة من الحزن لا تخبو ولا تهدأ . ولحقت الإسلام . وأسلمت ، ومع ذلك ظلت ذكرى صخر عالقة بنفسها ، وفيه تقول :

قَدَى بَيْتِكَ أُمُّ بِالْعَيْنِ عَوَّارُ      أُمُّ ذَرَفَتْ أَنْ خَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ<sup>(١)</sup>  
كَانَ عَيْنِي لَدِّكَ إِذَا خَطَرْتُ      فَيَضُّ يَسِيلُ عَلَى الْخَدَّيْنِ مِذْرَارُ<sup>(٢)</sup>  
فَالْعَيْنُ تَبْكِي عَلَى صَخْرٍ وَحَقُّهَا      وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ الْأَرْضِ أُسْتَارُ<sup>(٣)</sup>  
تَبْكِي خُنَاسُ وَمَا تَنْفَكُ مَا عَمَرْتُ      لَهَا عَلَيْهِ رَنِينٌ وَهِيَ مِقْتَارُ<sup>(٤)</sup>

( ١ ) العوار : الورد ، ذرفت : قطرت قطرات متعاقبة .

( ٢ ) الفيض : الماء الغزير ، ومذار : كثير .

( ٣ ) الأستار : الأحجار ، وجديد الأرض كناية عن أنه حات حديثاً ، فأرضه التي دفن فيها

لا تزال جديدة لم تبل ولم تندثر .

( ٤ ) خناس : النساء ، مقتار : ضعيفة .



تبكى خُنَّاسٌ على صَخْرٍ وَحَقٍّ لَمَّا إِذْ رَأَى الدَّهْرُ أَنَّ الدَّهْرَ ضَرَّارٌ<sup>(١)</sup>  
 بكاء والممة ضَلَّتْ أَلْفَتَهَا لَمَّا حَنِينَانِ : إِصْفَارٌ وَإِكْبَارٌ<sup>(٢)</sup>  
 قَرَعَى إِذَا نَسِيَتْ حَتَّى إِذَا ذَكَرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ  
 وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتِيَهُمُ الْمَدَادُ بِهِ كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ<sup>(٣)</sup>

وواضح أن الأبيات تمتلئ بالشاعر الصادقة ، وهي مشاعر أُنحت تعمقها الحزن ، بل إن قلبها ليكتوي به ، وهي لا تملك إفصاحا عن حراوته في أحشائها إلا هذه الكليم الملتاعة ، فهي تحملها كل ما تشعر به من وجْد ، وترفع بها صوتها وترجعه كترجيع الواهية من الحيوان على أليفها ، فهي لا تقصد ولا تعتدل ، بل تفرط في نحيبها وتعلو بتشجيعها ونواحها ما وسعها الإفراط والعلو . إن أخاها الذي كان أملها في دنياها بعد أن خطفت المنون أخاه قد أصبح بين عشية وضحاها خلف أستار وأحجار ، وما تزال الأرض التي وُسِّدَ فيها جديدة ، فوته منذ أيام ، ولزوله في هذه الحقرة المظلمة لم يمض عليه إلا فترة قصيرة . وهي تنظر إليه من حولها كما عودها فلا تراه ، فتنتديه ندبا حارا ، وما تزال تذهب وتجيء ، وما تزال حائرة ، والدموع في عينيها ولسانها ينوح . ويموت أبوها فتبكيه ، وتتحول حياتها إلى مآتم متكررة ، لا تزال تبكي فيها وتتحب .

وهذه اللوعة المتقدة في فؤاد النساء نجدتها تنقد أيضاً في فؤاد بعض الشعراء على إخوتهم ، ولعل مُسْتَمِّمَ بن نُوفِرَةَ الشاعر المخضرم أكثر الشعراء القلماء لوعة وحرقة على أخيه ، وكان قد قتل في حروب الردة ، فرثاه رثاء حارا لا يصدر إلا عن قلب موجد وفؤاد ملتاع ، ومن قوله فيه :

لَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ صَدِيقٌ لَتَذُرَافِ الدَّمُوعِ السَّوَافِكُ  
 يَقُولُ أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ لَقَبْرِ ثَوَى بَيْنَ اللَّوَى فَالِدٌ كَادِكُ<sup>(٤)</sup>

(١) رآها الدهر : رأت منه ما يسوؤها .

(٢) الإصفار بالحسين : خفض الصوت به ، والإكبار : رفعه .

(٣) العلم : الجبل

(٤) لوى الرمل : منقطعه ، والد كادك : جمع دكلك وهو الرمل المستوى .

قلت له إن الشَّجَى يَبْعَثُ الشَّجَى فدعني فهذا كله قَبْرُ مالكِ

وقد ظل يبكيه حتى ابيضت عيناه من الحزن ، وحتى أسخط عمر بن الخطاب على ما كان من قتل خالد بن الوليد له ، وصار ندبه لأخيه مصير الأمثال ، فهو يُروى ويتمثل به في كل مكان ، ومن بديع ما قاله فيه :

أرى كل حَبْلٍ بعد حَبْلِكَ أَقْطَعاً <sup>(١)</sup>	أَبَى الصَّبْرَ آيَاتُ أَرَاهَا وَلَمَّا تَنَى
وَكُنْتَ حَرِيّاً أَنْ تَجِيبَ وَتَسْمَعَا	وَأَنَّى مَتَى مَا أَدْعُ بِاسْمِكَ لَا تُجِبْ
وَأَمْسَى تُرَاباً فَوْقَهُ الْأَرْضُ بَلَقْعاً <sup>(٢)</sup>	تَحِيَّتَهُ مِنِّي وَإِنْ كَانَ نَائِياً
فَقَدْ بَانَ مَحْمُوداً أَخِي حِينَ وَدَّعَا <sup>(٣)</sup>	فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فَرَقْنَ بَيْنَنَا
مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا <sup>(٤)</sup>	وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَذِيْمَةً حِقْبَةً
لَطَوَّلَ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا	فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا
أَوَالِئُ كُنَّ مِنْ سَلَمَى إِذْ لَتَضَعُضَا <sup>(٥)</sup>	وَلَوْ أَنَّ مَا أَلْقَى أَصَابَ مُتَالِعَا
ذِهَابَ الْغَوَادِي الْمُدْجَنَاتِ فَأَمْرَعَا <sup>(٦)</sup>	سَقَى اللَّهُ أَرْضًا حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكِ

والأبيات من قصيدة طويلة حاول أن يتجلد في أولها ، ولكن لم يلبث أن غلبه الحزن على أخيه فتحسّر على فراقه ، وبكى لوداعه ، وإنه ليحييه من بعيد وهو يئن أنين الشكلى المقروحة الفؤاد، مصوراً عظم ما نزل به من المصيبة الفادحة التي لو نزلت بجبل لدكته دكا . ولم يلبث أن استسقى لقبره قطع

(١) أقطع : مقطوع .

(٢) البلقع : الأرض القفر .

(٣) بان : فارق .

(٤) جذيمة هو جذيمة الأبرش ، فادم مالكا وعقيلتا ابني فارح بن كعب ، ثم قتلها ، يتصدعا : يتفرقا .

(٥) متالع وسلمي : جعلان .

(٦) الذهاب : جمع ذهبة وهي القطعة الفزيرة من المطر ، والغواصي : السحب التي تندو بالنيث ، والمُدْجَنَات : الكثيفة الشديدة السواد ، وأمرع : أعصب .

السحاب الكثيفة حتى تخضر الأرض من حوله وترهى به ويجدته ، ويصبح  
منها في روض بهيج .

وما يزال الزمن يتقدم بنا حتى نلتقى بالعصر العباسي عصر الرقي الفكري  
والتعمق في الأحاسيس والمشاعر فتجد أبا تمام يرثي أخاه رثاء باكيا ، وكأن كل  
بيت فيه يقطر دمعا بل دما ، فالحزن يجري في قلبه وفؤاده ، بل في أعطاف أبياته  
نفسها ، فهي تنبض به وتخفق ، يقول :

إني أظنُّ البلى لو كان يفهمه	صدَّ البلى عن بقايا وجهه الحسن
يا يومه لم تدعْ حُسنا ولا أدبا	إلا حكمتَ به للحدِّ والكفن
لله مقلته   والموتُ يكسرها	كأن أجفانه سكرى من الوسن
يردُّ أنفاسه كرهاً وتمغيفها	يدُ المنية عطفَ الريح للغصن
يا هؤلَ ما أبصرتْ عيني وما سمعتْ	أذنى فلا أبصرتْ عيني ولا أذنى
لم يبق من بدني جزءٌ علمتُ به	إلا وقد حله جُزءٌ من الحزن
كان اللحاقُ به أهنا وأحسن بي	من أن أعيش سقيمَ الروح والبدن

وهو في هذه الأبيات يصور تصويرا دقيقا صراع أخيه مع الموت ساعة  
الاحتضار ، وقد عرف كيف ينقل إلينا اللحظة بكل ما ونزه فيها من إبر الألم  
والجزع ، حتى ليتحول إلى هيكل للأوصاب والأشجان ، فكل جزء فيه يملؤه  
وصب وشجن ووجع ، لما رأى وسمع . لقد رأى أخاه والموت يكسر أجفانه ويخفق  
أنفاسه ، وإن كل نفس ليخترق حجاب سمعه بما فيه من حشيرة ، فتكاد  
تنقطع نياط قلبه هما وحزنا ، وإنه ليود أن يلحق بأخيه حتى لا تعاوده أشباح  
هذه الذكري التي تضغط على قلبه وتعتصر فؤاده اعتصارا .

وإذا كانت أصوات الناحة قد ارتفعت على مر العصور مع موت الإخوة  
فإن هذه الأصوات قد بُحَّتْ مع موت الأبناء وأفلاذ الأكباد ، فإن حرارة  
الأمهات والآباء بهم تاكل قلوبهم وأفئدتهم إذ يرون كأن أجزاء وأعضاء من  
أجسادهم بُسِّرت بئرا ، وصدقت هذه الأعرابية التي تقول في رثاء ولدها :

يَا قُرْحَةَ الْقَلْبِ وَالْأَحْشَاءِ وَالْكَبِيدِ يَا لَيْتَ أَمَّكَ لَمْ تُحْبَلْ وَلَمْ تَلِدْ  
أَيَقْنَتُ بَعْدَكَ أَنِّي غَيْرُ بَاقِيَةٍ وَكَيْفَ يَبْقَى ذِرَاعٌ زَالٍ عَنْ عَضُدٍ

فهى تشعر شعورا عميقا بأن جزءا منها وازاها التراب ، وهى فى طريقها إليه  
لتضمه إلى جسد لها وصدرها . فحياتها قد انتهت بموته ، وهى تجتاز واديا مظلماً  
من الغُصَصِ والآلام ، وتتقطع بين التشيع والتحيب ، حتى تصل إليه بعد التعب  
وطول العناء والشقاء . وما أصدق بكاء الأب الذى هوى ابنه تحت عينه من قمة  
جبل ، ففارقته روحه للتو والساعة ، فراح يقول :

هَوَى ابْنِي مِنْ عَلَا شَرْفٍ يَهْوِلُ عُقَابُهُ صَعْدُهُ<sup>(١)</sup>  
وَلَا أُمٌّ فَتَيْكِيهِ وَلَا أُخْتُ فَتَفْتَدُهُ  
هَوَى عَنْ صَخْرَةٍ صَلْدٍ قُفِرَتْ تَحْتَهَا كَبِيدُهُ<sup>(٢)</sup>  
الْأُمُّ عَلَى تَبْكِيهِ وَالْمَسُّ فَلَا أَجْدُهُ

فابنه قد سقط سقطة لا إقالة له منها ، سقط فى هاوية الموت بأسفل الجبل ،  
ورآه أبوه وهو يسقط فى قرار الأبدية العميق ، ولم يستطع أن يمد له عوناً ، ومع  
ذلك لا يزال يظن أنه من حوله ، فيضع يده ويتمسك كالأعمى فلا يجده ،  
ولأنما يجد الفقد والوجد واليكاء .

ولعل أبا لم يبلغ من التعبير عن لوعته بفقد أبنائه ما بلغه أبو ذؤيب الهذلى فى  
بكائه لبنيه السبعة الذين اختطفهم الموت من يده وحجره ، فقال يتوجع لفراقهم  
ويتحسر لموتهم :

أَمِنْ الْمَنُونِ<sup>(٣)</sup> وَدِيهِ تَتَوَجَّعُ وَالدهر ليس بمُعْتَبِرٍ مِنْ يَجْزَعُ  
قَالَتْ أُمِّيَّةٌ مَا لَجَسْتُكَ شَاخَا مِنْذُ ابْتَدَلْتُ وَمِثْلُ مَالِكٍ يَنْفَعُ

( ١ ) الشرف : قمة الجبل ، والصعد : الصعود .

( ٢ ) الصلد من الصخور : الذى لا ينبت ، وقُفِرَتْ : تفتتت .

( ٣ ) المنون هنا : الدهر .

أم ما لجسك لا يلائم مضجعا  
 فأجبتها أما لجسى إنه  
 أودى بنى وأعقبونى حرة  
 سبقوا هوى وأعتقوا هواهم  
 فبقيت بعدهم بعيش ناصب  
 ولقد حرمت بأن أدافع عنهم  
 وإذا النية أنشبت أظفارها  
 فالعين بعدهم كآت جذاقها  
 حتى كأني للحوادث مروءة  
 ولئن بهم فجع الزمان ودرئبه  
 إلا أقض<sup>(١)</sup> عليك ذاك المضجع  
 أودى بنى من البلاد فودعوا<sup>(٢)</sup>  
 بمد الرقاد وعبرة ما تقلع<sup>(٣)</sup>  
 فتخروءوا، ولكل جفب مضرع<sup>(٤)</sup>  
 وإخال أنى لاحق مستتبغ  
 وإذا النية أقبلت لا تدفع  
 ألقيت كل تبيمة لا تنفع<sup>(٥)</sup>  
 سملت بشوك ففى عور تدفع<sup>(٦)</sup>  
 بصفا المشرق كل يوم تفرع<sup>(٧)</sup>  
 إني بأهل مودتى لمفجع

وهى صيحة حسرة وألم صاحبها أب من أحشائه وسويداء فؤاده ، وقد وصف  
 فيها شحوبه وسهاده ودموعه التى لا ترقأ ولا تجف ، وذكر أن عيشه انقلب مرا  
 من بعدهم ، فهو يتجرع الحياة كأنها غصص من العذاب . لقد رأهم والموت  
 يتلفهم واحدا بعد واحد ، فلم يستطع دفعا له ولا ردا . وتلك البراعم التى غرس  
 شجرتها وسقاها من روحه وقلبه تنفتت وتذبل أزهارها فى الكيام ، ولا حول له ولا  
 قوة . إن عليه أن يتلقى النهاية المنفضة لكل فلة من فلدات كبده . وكل ابن  
 كان ملء روحه وقلبه ، وتقفر الدنيا من حوله ، ولا يبقى له إلا الألم والبكاء الممض  
 وإلا هذا الوادى وادى الموت الذى يحوس خلاله .

(١) أقض عليه المضجع : وجهه شحنا لا يريحه .

(٢) أما هنا مركبة من أن وما الموصولة ، أودى : هلك .

(٣) تقلع : تكلف .

(٤) هوى : هواى ، أعتقوا : أسرعوا ، تخروءوا : ماتوا واحدا بعد واحد .

(٥) التبيمة : العوذة .

(٦) الجذاق : جمع حلقة ، سملت : ففتت .

(٧) المروءة : حبر أبيض تقطع منه النوار .

وما يزال الشعراء يصبجون بالبكاء والندب على أبنائهم حتى نصل إلى العصر العباسي ، فنجد إبراهيم بن الخليفة المهدي يموت له ابن بعيدا عنه في البصرة ، وكان هو ببغداد ، فقال يرثيه :

دَعَتْهُ نَوَى لَا تُرْتَجَى أَوْبَةٌ لَهَا	فَقَلْبِكَ مَسْلُوبٌ وَأَنْتَ كَثِيبٌ
تَبْدُلُ دَارًا غَيْرَ دَارِي وَجِيرَةٍ	سِوَايَ وَأَحْدَاثُ الزَّمَانِ تَنْوِبُ
يُؤْوِبُ إِلَى أَوْطَانِهِ كُلُّ غَائِبٍ	وَأَحَدُ فِي الْغِيَابِ لَيْسَ يَثُوبُ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَالنُّعْضِ فِي مِيعَةِ الضُّحَى	سَقَاهُ النَّدَى فَاهْتَزَّ وَهُوَ رَطِيبٌ
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ كَاللَّسِّ يَلْمَعُ نَوْرُهُ	بِأَصْدَافِهِ لَمَّا تَشْنَبُهُ ثُقُوبُ
وَرِيحَانٌ صَدْرِي كَانَ حِينَ أَشْمُهُ	وَمُؤْنِسٌ قَصْرِي كَانَ حِينَ أَغْيَبُ
قَلِيلًا مِنَ الْأَيَّامِ لَمْ يَرَوْ نَظِيرِي	بِهَا مِنْهُ حَتَّى أَعْلَقْتُهُ شَعُوبُ <sup>(١)</sup>
كَظَلِّ سَحَابٍ لَمْ يُقَمْ غَيْرَ سَاعَةٍ	إِلَى أَنْ أَطْلَحْتُهُ فُطَاحَ جَنُوبُ <sup>(٢)</sup>
أَوِ الشَّمْسِ لَمَّا مِنْ غَمَامٍ تَحَسَّرْتُ	مَسَاءً وَقَدْ وَلَّتْ وَحَانُ غُرُوبُ
سَابِكِيكَ مَا أَبْقَتْ دُمُوعِي وَالْبُكَاءُ	بَعِينِي مَاءٌ يَا بُنَى يُجِيبُ
وَمَا غَارَ نَجْمٌ أَوْ تَغَنَّتْ حَمَامَةٌ	أَوْ اخْضَرَّ فِي فَرْعِ الْأَرَاكِ قَضِيبُ
حَيَاتِي مَا دَامَتْ حَيَاتِي فَإِنْ أَمْتُ	ثَوَيْتُ وَفِي قَلْبِي عَلَيْكَ نَدُوبُ <sup>(٣)</sup>
وَأُضْمِرُ إِنْ أَفْدَتُ دُمْعَى لَوْعَةٍ	عَلَيْكَ لَهَا تَحْتَ الضُّلُوعِ وَجِيبُ
وَإِنْ صَبَاحًا نَلْتَقَى فِي مَسَائِرِ	صَبَاحٌ إِلَى قَلْبِي الْقَدَاةَ حَيْبُ

ولا ريب في أن هذه صرخة من الأعماق فإن أحمد توفي دون أن يراه أبوه ، توفي بعيدا عنه غريبا عن الأهل والأقرباء ، وإن ذلك ليحز في فؤاد أبيه ، بل إنه ليلتاع له التياغا ، فكل غريب يؤوب إلا أحمد ، وتلك القوافل كلها

(١) شعوب : المنية .

(٢) الجنوب : الريح الجنوبية .

(٣) ندوب : جروح .

خلاء منه . إنه رحل في قافلة أخرى ، قافلة لا تسير في النهار ، وإنما تسري في ليل الأبدية . وينعاه أبوه ، ينعي شبابه ونضرتة وريحانه وأنسه . وإنه ليدكر أيامه الماضية فتتراعى له قصيرة كظل سمابة وغروب شمس ، فيبكي ويئن مع طلوع كل صباح ودخول كل مساء ، ومع حنين الطير وشدة الحمام . ووراء الأئين والبكاء حرقة الوجد وألم الفقد ، وإنه لينتظر الموت ، حتى يُسرق في لُجّته عذابه ، بل حتى يلتق ابنه الذي فصمه منه وفصله عنه .

ونمضي فنلتقى بأبي تمام ، وقد قرع الموت فؤاده ، إذ استخلص لنفسه منه ابنه ، وكان تحت بصره وهو يجالّد الموت بكل ما يملك ، ولكن الموت غلاب ، فلم يلبث أن غلبه على أمره ، فاستسلم لقضاء ربه ، ورأى كل ذلك أبو تمام ، فقال :

آخرُ عهدى به صريحا	للموت بالداء مستكينا
إذا شكا غُصَّةً وكَرْبا	لاحظ <sup>(١)</sup> أو راجع الأئينا
يُدِيرُ في رَجْمِهِ <sup>(٢)</sup> لسانا	يمنعه الموتُ أن يُبيننا
بَشَخْصُ طورا بناظرِيه	وتارة يُطبّق الجفونا
ثم قَضَى نَحْبَهُ فأمسى	في جَدَثٍ <sup>(٣)</sup> للثرى دَفيننا
بعيد دارٍ قريب جارٍ	قد فارق الإلف والتلدِينا <sup>(٤)</sup>

ولا يقرأ أحدهذه الأبيات حتى ينبض قلبه ويخفق ، لأن أبا تمام عرف كيف يصور لحظة الاحتضار وما يرافقها من ضربات الموت ، إنها تسدّد إلى ابنه ، وهو لا يستطيع لها ردا ، ويشكو ويفتح عينيه ، وما تلبث يد الموت السوداء أن تغمضهما ، بل إنها لتتقدم له بكثوس مليئة بالغصص والكُرَبِ ، ولا يستطيع إلا أن يشرب منها ، يشرب السم الزعاف . إن روحه عند حلقه ، وإن ومضات الحياة

(١) لاحظ : لظر إلى أهله مستغيثا .

(٢) الرجوع : رد الكلام .

(٣) الجدث : القبر .

(٤) التدين : الصديق .

تبرق في عينه، ثم لا تلبث أن تختفي في ظلام الموت وبين سحبه التي اكفهر بها الجو،  
ولأنه لجوخائق . واختنق الغلام وفارق دنياه، وخلّف أباه وراعه للأوجاع والآلام،  
على نحو ما خلّف لابن الرومي ابنه الأوسط محمد، إذ مات منزوفاً، فقال ييكيه:

تَوَخَّى حِمَامُ الْمَوْتِ أَوْسَطَ صِبْيَتِي	فَلَهُ أ كَيْفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ الْعِقْدِ <sup>(١)</sup>
لَقَدْ قَلَّ بَيْنَ التَّهْدِ وَاللَّخْدِ كَبْنُهُ	فَلَمْ يَنْقُصْ عَهْدَ الْمَهْدِ إِذْ ضُمَّ فِي اللَّخْدِ
أَلْحَ عَلَيْهِ النَّزْفُ حَتَّى أَحَالَهُ	إِلَى صَفْرَةِ الْجَادِي عَنْ حُمْرَةِ الْوَرْدِ <sup>(٢)</sup>
وَضَلَّ عَلَى الْأَيْدِي تَسَاقُطُ نَفْسُهُ	وَيَذْوِي كَايْذَوِي الْقَضِيبِ مِنَ الرَّندِ <sup>(٣)</sup>
فِيَالِكَ مِنْ نَفْسٍ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا	تَسَاقُطُ دُرٌّ مِنْ نِظَامٍ بِلَا عَقْدِ <sup>(٤)</sup>
أَرِيحَانَةَ الْعَيْنِينَ وَالْأَنْفِ وَالْحَشَا	أَلَا لَيْتَ شَعْرَى هَلْ تَغَيَّرَتْ عَنْ عَهْدِي
كَأَنِّي مَا اسْتَمْتَعْتُ مِنْكَ بِضَمَّةٍ	وَلَا شَمَّةٍ فِي مَلْعَبٍ لَكَ أَوْ مَهْدٍ
أَلَا لِمَا أَبَدَى عَلَيْكَ مِنَ الْأَسَى	وَإِنِّي لِأَخِي مِنْكَ أَضَافُ مَا أَبَدَى
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مِنِّي تَحِيَّةً	وَمِنْ كُلِّ غَيْثٍ صَادِقِ الْبَرَقِ وَالرَّعْدِ

وابن الرومي مثل أبي تمام محترق القلب على ابنه الذي رآه يجود بنفسه تحت  
بصره ، وقد عركه النزف وأحاله في صفرة الزعفران ، ولأنه ليرتعش في يد الموت  
الأثيم الذي سلّ عليه سيفه ، وإن دماؤه لتسيل والمنون لا ترحم . فيا لابن الرومي !  
إنه يشعر كأن نفسه تتساقط من بين جنبيه وهذه الزهرة الحاملة التي كان يجد فيها  
فرحة قلبه وحشاه قد أخذت تذوي قبل الأوان ، وكأنه لم يستمتع منها بشمّة ولا  
ضمة فيا لبؤس الحياة ! إنها تبلو في صورة بشعة من القبح والألم . وابن الرومي  
يفزع ويرتاع ، ولا ينفعه فزعه ولا ارتياحه ، فيعود إلى تحية ابنه ويستسقي له على  
عادة العرب الغيث والسحاب .

( ١ ) واسطة العقد : الجوهرة التي تتوسط لآلته .

( ٢ ) الجادي : الزعفران .

( ٣ ) الرند : شجر طيب الرائحة .

( ٤ ) نظام بلا عقد : سلك غير معقود .



وما أكثر من بكوا أبناءهم ! وبكاء الشهاى لابنه ذائع مشهور ، وهو يستله  
بالحديث عن فناء الناس وكل ما على الأرض ، وما يلبث أن يندبه ندبا حارا ،  
فيقول :

يا كوكبا ما كان أقصر عمره      وكذلك عُمر كواكب الأسحار  
وهلال أيام مضي لم يستدِرْ      بذرا ولم يُنهَلْ لوقت سرار<sup>(١)</sup>  
عجل الخسوف عليه قبل أوانه      فحاه قبل مَظَنَّة الإبدار

ومن أروع ما نظم في بكاء الأبناء مقطوعة لفقيه الأندلس أبي الوليد الباجي  
ندب بها ابنين له ماتا مغتربين ، وهى تجرى على هذا النمط :

رعى الله قبرين استكانا ببلد      هما أسكنها في السواد من القلب  
يقر بعيني أن أزور ثراها      وألصق مكنون التراب في التراب<sup>(٢)</sup>  
وأبكي وأبكي ساكني لعلني      سأبجد من صخب وأسعد من صخب<sup>(٣)</sup>  
فما ساعدت ورزق الحمام أخاصي      ولا روحت ربح الصبا عن أخى كرب  
ولا استعذبت عيناى بعدها كرى      ولا ظمئت نفسي إلى البارد العذب  
أحن ويئني اليأس نفسي عن الأسى      كما اضطر محمول على المركب الصعب

والآيات تفيض بالشعور الصادق الذى يعبر عن نفس مجروحه قد هدتها  
الهم وضعفها الحزن ، وإن صاحبها لجزع أشد الجزع ملتحا أعظم التياح .  
وربما كان أهم شاعر ولع برثاء ابنه وبكائه أبو الحسن على بن عبد الغنى  
الكفيف شاعر القيروان الذى هاجر إلى الأندلس حين خربها العرب حوالى  
منتصف القرن الخامس للهجرة ، فقد توفى له ولد فى التاسعة من عمره ، فصنع  
فيه مراثى على حروف المعجم ألف منها ديوانا سماه « اقتراح القريح واجتراح  
الجريح » وفيه يقول :

(١) يستدِر : من استدارة البدر فى وسط الشهر . وقت السرار : وقت اختفاء القمر بحلة .

(٢) التراب : عظام الصدر

(٣) أسعد : من أسعد أى أحانه فى البكاء والنواح

أنا قرّدتُ بلا خليل ولا ابن ولا أخ  
أنا كالأورق اشتكى بُعدَ وَكْرٍ وأفرخ  
قُرّةُ العين دونه برزخُ أيّ برزخ

ومع طول الديوان تقل فيه الأبيات الملتاعة، إذ شُغِلَ صاحبه بالصور البيانية والخيال البلاغية مما كان يعدّ آية البراعة في عصره .  
ولعلّ فيما قدمنا ما يدلّ دلالة واضحة على أن نذب الأبناء والإخوة يستوفى أكثر الصفحات المحزونة من نذب الأهل والأقارب، فإننا إذا تركناهم إلى غيرهم من الأصول والفروع لم نجد هذه الحُرقة التي تتصور لها الأحشاء والقلوب، ومع ذلك من حين إلى حين نجد بكاءً لأب أو أم أو جدة أو أخت أو بنت، وربما كانت مرثية شوقٍ لأبيه خير صورة لنذب الآباء في العربية، وإن كان قد أدخل عليها تفكيراً في الحياة والممات، ولكن تظل بعض الأبيات لها روعة النذب واليبكاء كقوله :

أنا من مات ومن مات أنا	لقي الموتَ كلانا مرتين
نحن كنا مهجةً في بدنٍ	ثم صرنا مهجةً في بدنين
ثم عدنا مهجةً في بدنٍ	ثم نلقَى جُنةً في كفنين
ما أبى إلا أخٌ فارقتهُ	ودّه الصدقُ وود الناس مَيّن
ظالمًا قنّا إلى مائدةٍ	كانت الكِسرةُ فيها كسرتين
وشربنا من إناءٍ واحدٍ	وغسلنا بعد ذا فيه اليدين

وقليل بين الشعراء من رثى أمه، وربما كان من أجهل ما قيل في الأمهات قول ابن سناء الملّيك في أمه من موشحة :

حزنى على أُمّ حزنٍ شديدٍ	تَبَلّى الليالى وهو غصٌّ جديدٌ
فقل لنار القلب هل من مزيدٍ	وقل لصرف الدهر هل من تحيدٍ

ورثني المتنبى جدته ، ولكن رثاءه فيها يدور على الفخر بنفسه أكثر مما يدور على بكائها ، وقد تأثر به شوقي في رثاء جدته « تميز » . ويتندر أن نجد ندبا حارا لأخ على أخته ، وربما كان أبو فراس الحمداني خير من ندب أختا له ، ففى أخته يقول :

عقيلتي استلبت من يدي ولما أيتها ولما أهب  
وكنت أقيك إلى أن رمتك يد الدهر من حيث لا احتسب  
فلا سلت مقلة لم تسح ولا بقيت لمة لم تشب

وهذه كلها مراث لا تبلغ من حرارة التفجع ما تبلغه مراثى الأبناء ، وإذا كان هناك قصور فهو من قبيل الرجال الذين تعودوا — تقليداً للجاهليين — أن لا يرثوا بناتهم وأمهاتهم وأن لا يبكوا عليهن. أما المرأة فكانت أكثر وفاء للرجل ، بكته أنها وأبا وابنا ، وبكته زوجاً ، حدث الأصمعي أنه رأى بالبادية امرأة ألصقت خدها بقبر زوجها وهي تبكى وتقول :

خدي تقيك خشونة اللحد وقليلة لك سيدى خدي  
يا ساكن القبر الذى بوفاته عميت على مسالك الرشد  
اسمع أبشك على فلمنى أطفى بذلك حرقة الوجد

وتزوج الأمين بفتاة ، وتوفى عنها قبل أن يبنى بها ، فندبته ندبا حارا ، ومن قولها فيه :

أبكىك لا للنعم والأنس بل للمعالي والرمح والفرس  
أبكى على سيد فجمت به أرملنى قبل ليلة العرس

فالمرأة لم تقصر فى بكاء أهلها وأزواجها ، وقد بكى كثير من الرجال زوجاتهم ، وربما كانت الزوجة أهم النساء اللاتي ذرف الرجال عليهن الدموع ، فنحن نجد فى كتب الأدب قديما وحديثا قطعاً مبيكة فى هذا الجانب . ومن

طريف ما رُوي لبعض الأعراب :

فوالله ما أدري إذا الليل جئني      وذكرنيها أينما هو أوجعُ  
أمنفصل عن نذري أم كريمة      أم العاشق النابي به كل مضجع<sup>(١)</sup>

وصور هنا هذا الأعرابي ما يبكيه الرجل في زوجته ، فهو يبكي معشوقته من جهة وأم أطفاله من جهة ثانية . ومن أروع ما رُئي به الزوجات وأشجاء قول محمد بن عبد الملك الزيات في زوجته :

الأم رأى الطفل المفارق أمه      بعيد الكرى عيناه تبتران<sup>(٢)</sup>  
رأى كل أم وابنها غير أمه      بيتان تحت الليل ينتحيان  
وبات وحيدا في الفراش تحته      بلابل قلبه دائم الخلقان  
فلا تلحني إن بكيت فأنما      أداوى بهذا الدمع ما تريان  
وإن مكانا في الثرى حط لحدّه      لمن كان في قلبي بكل مكان  
أحق مكان بالزيارة والهوى      فهل أتانا إن عجت متظران

وفي هذه الأبيات لوعة حقيقية ، لوعة الزوج الوامق الذي يكاد يموت حسرة وأسى على زوجته ، وإنه ليولي وجهه شطر ابنها ، ويرى حزنه وولمه ، فتعظم الحسرة ويعظم الأسى والشجن في نفسه ، فيحن إليها ، يحن إلى جسدها وروحها ، وما يزال يختلف إلى قبرها بنفس الحرارة والعمق اللذين كان يختلف بهما إلى قصرها . وماذا يستطيع ، وماذا يحني ؟ إنها ذهبت إلى الأبد ولم يعد له منها إلا الدموع الغزار وإلا الآلام والأشجان .

وعلى نحو ما رُئي العباسيون زوجاتهم رثوا جوادهم وبكوهن ، وارتفع صياحهم وراءهن ، وناحوا عليهن نواحا لا ينقطع ، ومن أشهروا بذلك في العصر

(١) واضح أن حركة الروي في هذا البيت تخالف حركته في البيت السابق ويسمى العرب

ذلك إقواء .

(٢) تبتران هنا : نسيان بالدموع .

العباسي يعقوب بن الربيع ، وكان عشق جارية ، وظل سبع سنوات يبذل فيها  
سجانه وماله حتى ملكها فأقامت معه بضعة أشهر ، ثم ماتت ، ف شعر كأنه كان  
في حلم وأفاق منه على البؤس ، وله فيها ندب كثير ، منه قوله :

لله آنة فجت بها ما كان أبعدا من الدّس  
أتت البشارة والنعي معا يقرب مأنما من العرس  
كم من دموع لا تميف ومن نفس عليك طويلة النفس  
أبكيت ما ناحت مطوقة تحت الظلام تنوح في الفلّس

وكأنما كان هناك سباق بين القدر وبين يعقوب أن لا ينعم بأمنيته ، فلم  
يكذ يظفر بها ، ولم تكذ تغمر حياته بنور السعادة ، حتى فرت من أمام عينيه ،  
ونخلت له للظلام والوحشة . ألا إن هذه مخزية القدر ، لقد ظل يطلبها سبع  
سنين ، ولم يكذ يحصل عليها ويلمسها ، يلمس فرحته وسعادته ، حتى أتاه النعي  
مع البشرى ، وانقلب العرس البهيج إلى ماتم حزين .

وعلى قعر ما بكى العباسيون جوارهم وزوجاتهم بكاء فيه شجى وأسى  
بكت الأقاليم العربية الأخرى ، ففي كل مكان نجد مرأى الجوارى والزوجات ،  
فن ذلك وثاء المعلّى الطائي المصري جاريته « وصف » وفيها يقول :

ياموت ما بقيت لي أحدا لما زفت إلى البلى وصفا  
أسكنتها في قعر مظلمة بيتا يصافح كرب السقفا  
بيتا إذا ما زاره أحد عصفت به أيدي البلى عصفا  
ياقبر أبى على محاسنها فقد حوت النور والظرفا

وهي مرثية طويلة ، وتمتاز بالعاطفة الصادقة والشعور العميق بالحزن .  
وللمصريين من ورائه مرثى مبكية كثيرة في زوجاتهم ، وكذلك الأندلسيون ،  
ولبعضهم في وثاء زوجته وكانت تسمى زينب :

أزينبُ إن ظعنتِ فإن ظهراً أفلك<sup>(١)</sup> سوف يركبه المقيمُ  
ولما أن حَلَلْتِ الثُّرْبَ قلنا لقد ضَلَّتْ مواقعها النجومُ  
ألا يا زهرة ذَبَلْتِ سريعاً أضنَّ المَزنُ أم ركدَ النسيمُ

والصورة المرسومة في البيت الأخير جميلة حقاً ، وهي صورة أملاها حب  
دفين لزوجته اختطفها المنون وهي لا تزال في عمر الزهور . إنها زهرة ندية عطرة لم  
تلبث أن ذوت قبل الأوان ، وبديع من الشاعر أن أكمل الصورة بقوله « أَضَنَّ  
لمزن أم ركدَ النسيم ؟ » فقد صبَّ في هذا التساؤل الذي تتساءله مواكب الإنسانية  
من قديم كلِّ ما أراد من إظهار الحيرة والدهشة إزاء المصيبة الفادحة .

ومن بكى زوجته في العصر الحديث بكاء حاراً محمود سائى البارودى ، إذ  
ماتت شريكة حياته وهو منى<sup>٢</sup> في سرنديب فحُرِّمَ أولاده أباهم وأمهم جميعاً .  
 واجتمع عليه بذلك أسى الننى والفقد وحرمان الأبناء ممن كانت أنسهم في غيبته  
وأمنهم وسعادتهم ، ولم يلبث أن بث حسرة المتوقدة وحرقة المتأججة في مرثية  
طويلة يقول فيها :

يا دهرُ فيم فجعتنى بحليلةٍ كانت خلاصةَ عُدتى وعَتادى  
إن كنتَ لم ترَحَمْ ضنَّائى لبعدها أفلا رحمتَ من الأسى أولادى  
أفردتَهنَّ فلم يَنَمَنَّ توجعاً قرَحَى العيون رواجفَ الأكبادِ  
ألقين دُرَّ عقودهنَّ وصُغْنَ من دُرِّ الدموع قلائدَ الأجيادِ  
يَبْكِينَ من وَلَهٍ فراقَ حَفِيَّةٍ كانت لهنَّ كثيرة الإسعادِ  
فخدودهن من الدموع نَدِيَّةٌ وقلوبهن من المصوم صوادى

ومنذ سنوات نشر كل من عزيز أباظة وعبد الرحمن صدقى ديوانا يرى فيه  
زوجته فقد صهر الحزن قليهما ، وسعر فؤاديهما ، فسكبا الدموع ، وسرعان ما  
تحولت الدموع إلى ديوان شعر . وسمى عزيز أباظه ديوانه « أناث حائرة » وهي أناث

نفس سعدت بالحياة الزوجية وفراديسها ، ثم لم تلبث أن رُدَّت إلى جحيم الفراق وهو فراق الأبد . ومن طريف أشعاره فيها قصيدة بعنوان «يوم ميلادى» يقول فى مطلعها :

أقول والقلبُ فى أضلّاعه شَرِقُ      بالدمع لا عُدَّتْ لى يا يوم ميلادى  
نزلتْ بى ودخيلُ الحُزنِ يَعْتَصِفُ بى      وفادحُ البَثِّ ما ينفكُ مُعْتادى  
وكنتَ تحملُ لى والشملُ مجتَمِعُ      أنسا يَفِيضُ على زوجى وأولادى  
فانظر تَرَّ الدارِ قد هِيضَتْ جوانِبُها      وانظرْ تَجِدُ أهلها أشباحَ أجسادِ  
فقدتها خَلَّةً للنفسِ كافيةً      تكاد تُغْنِي غناء الماء والزادِ  
تحنو على وترعاني وتبسط لى      فى غمرة الرأى رأى الناصح الهادى

وسمى عبد الرحمن صديق ديوانه « من وحى المرأة » ولم تكن شريكة حياته فحسب ، بل كانت أيضا شريكة عقله ودرسه . فاعتصر الحزن قلبه عليها ، وأوقد فيه نيرانا لا تهدأ من الحسرة والفجيرة ، وصوّر ذلك لافى قصيدة أو قصيدتين ، بل فى ديوان كله ألم وعذاب . ومن قوله فيها وقد تحمل إلى قبرها باقة من الزهر :

أيا زهرتى فى التراب بين المتأبرِ      إليك حملتُ الزهر ، شأهتُ أزاهرى<sup>(١)</sup>  
حملتُ إليك الزهر ترويه أدمى      وتذويه أنفاسى وحرّ زوافرى  
قدمتُ عليك اليوم أسوأ مقدّمِ      سوادَ بأثوابى سوادَ بخاطرى  
وخاتمُ عُرْسى لا يُزَيِّنُ إصْبَعى      ولحّة وجهى غيرها فى التزاويرِ  
على قبرك المرموق أبكى وأرتمى      وأجار بالشكوى تشق مرأى

ويطول بنا الحديث إذا أخذنا نعرض كل الطرائف التى بكى بها الشعراء والشواعر أهلهم وأقاربهم ومن أصفوهم حبهم . وإنما هذه نماذج لما صور به شعرنا الآلام والأوصاب التى حلت بأصحابه حين طريق الموت أبوابهم ، واختلس تحت أعينهم أفرادا من أسرهم وأقربائهم ورفاقهم .

## ندب الشعراء أنفسهم

إذا كان الشعراء قد ندبوا أهلهم وذوهم فأولى لهم أن يندبوا أنفسهم حين  
تحين ساعة الموت ، ولا يجدون لهم ملجأ ولا عاصما ، وكثيرا ندبوا أنفسهم  
ويكوها منذ العصر الجاهلي ، ويقال إن أول من بكى على نفسه وذكر الموت على  
لسانه يزيد بن خذاف ، إذ قال :

هل للفتى من بنات الدهر من وافي      أم هل له من حمام الموت من رافي  
قدرجلوني وما بالشعر من شعث      وألبسوني ثيابا غير أخلاق<sup>(١)</sup>  
وأرسلوا فتية من خيرهم حسبا      ليُسندوا في ضريح القبر أطباق<sup>(٢)</sup>

وطبيعي أن يندب الشعراء أنفسهم وهم يفارقون دنياهم من ورأهم إلى حفرة  
مظلمة . إنها ساعات ثم يخرج المشيعون من حولهم وورأهم ، يحملون نعوشهم  
إلى قبورهم ، ويدفنونهم في لحودهم ويوارونهم التراب ويعودون ، ليسم كل منهم  
دورته في حياته .

وكانت تعظم المصيبة على الشاعر حين يجد نفسه غريبا عن وطنه ودياره ،  
ويتزل به الموت ولا يجد مقرا من لقائه ، وينظر حوله ، فلا يجد أحدا من أهله ،  
فليس معه من سيشيعة ولا من سيحضر له لحده ، ولا من سيبكيه ويندبه . ومن  
خير من صور الألم لذلك مالك بن الربيع الذي غزا في خراسان ، فلما حضرته  
منيته ناح على نفسه قائلا :

ألا ليت شعري هل أبيت ليلة      بجنب الفضا أزجي القلاص النواجيا<sup>(٣)</sup>

( ١ ) أخلاق : بالية .

( ٢ ) أطباق : عظامي .

( ٣ ) الفضا : شجر يتجدد وأرض بها ، والقلاص : التوق ، والنواجي : السريعة .



فليت الغصا لم يقطع الركبُ عرصةً  
لقد كان في أهل الغضا لودنا الغضا  
فيا صاحبي دَخَلِي دنا الموتُ فاخفِرا  
وخطًا بأطراف الأسنّة مضجعي  
خُذَانِي فَجَرَُّانِي يَرُدِّي إِلَيْكَمَا  
تَفَقَّدْتُ مِنْ يَبْكِي عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ  
وبالرمل منا نسوةٌ لو شهدتنّ  
عجوزي وأختاي اللتان أُصِيبَتَا  
وما كان عهد الرمل مني وأهله  
يقولون لا تَبْعَدْ وَهْمٌ يَدْفِنُونِي  
وليت الغصا ماشى الركابَ لياليا  
مَرَّارٌ وَلَسَكُنَّ الغصا ليس دانيا  
برايةٍ إني مقيمٌ لياليا  
ورُدًّا على عيني فضل ردايَا  
وقد كنت قبل اليوم صعبًا قياديا  
سوى السيف والرمح الردينيُّ باكِيا  
بَكَيْنٌ وَفَدَيْنَ الطيبَ المداويا  
بموتى وبنتى لي تهيج البواكيا  
ذميا ولا بالرمل ودعتُ قاليا<sup>(١)</sup>  
وَأَيْنَ مَكَانُ البعدِ إِلَّا مَكَانِيَا

والمرثية طويلة ، وكلها شكوى وبكاء وأتین ، لا من أجل الموت فحسب ، بل للموت البعيد فهو يموت غريبا عن الرمل وأهله ، لم تُغمض عينيه أمه ولا أخته ولا بنته ولا زوجه ، وإنه ليذكر الغضا ذكرى مؤلمة ، إذ كان مكتمل الصحة والشباب يدفع التوق أمامه ، ولا وحدة ولا غربة . إنه يتمنى لو أنه لم يفارق الغضا ولا أهله ، إذن ما غالت خراسان هامت ، ولكنها الفتوح الإسلامية ، وهو يخرج مجاهداً في سبيل الله مع المجاهدين ، وقد ترك وراءه أسرته قرير العين ، غير أن الفراق صعب ، ولم يكن يعلم حين ودعهم أنه الوداع الأخير . وتطيف به الرهبة من الموت ، كما بطيف به الحنين إلى الأهل ، فيبكي وينتدب متأثراً تأثراً عميقاً ، إذا أشرفت حياته على النهاية ، وعما قليل توصلد أحجار القبر دونه . ألا فلينشج ولينح ، إن القدر سيصرعه لا محالة .

ونمضي إلى العصر العباسي فنجد الشعراء يكثرُونَ من نوح أنفسهم ، وخاصة أنهم يذكرون ذنوبهم فيخافون ربهم ، ويشفقون من لقائه ، فينطلقون وجيلين معلنين التوبة والاستغفار مما قدمت أيديهم ، ولأبي نواس :

يَا رَبِّ إِن عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً      فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنْ عَفْوِكَ أَعْظَمُ  
 إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا حَسَنٌ      فَبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمَجْرِمُ  
 عَلَى إِلَيْكَ وَسِيلَةً إِلَّا الرَّجَا      وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنْ مُسْلِمُ

لقد أظلمت الدنيا وادلمت في عين ألى نواس حين نزل به ريب المتون ،  
 ففزع إلى ربه يعلق به أمله ، ويرجو منه أن يُسَدِّلَ ثوب الغفران على ذنوبه  
 وسيئاته التي اقترفها ، ويشمله بعفوه وإحسانه . ويكثر الشعراء العباسيون الذين  
 صاحوا هذه المصيحات حين طرقت المنية دورهم ، ولأبى العتاهية هذا الدعاء :

إِلَهِي لَا تَعَذِّبْنِي فَإِنِّي      مُقِرٌّ بِالَّذِي قَدْ كَانَ مِنِّي  
 فَالَى حِيلَةٍ إِلَّا رَجَائِي      لِعَفْوِكَ إِنْ عَفَوْتَ وَحُسْنُ ظَنِّي  
 وَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ لِي فِي الْخَطَايَا      وَأَنْتَ عَلَى ذَوْ فَضْلٍ وَمَنْ  
 إِذَا فَكَّرْتُ فِي لَدَمِي عَلَيْهَا      عَضَضْتُ أَنَامِلِي وَقَرَعْتُ سِنِّي  
 يَظُنُّ النَّاسُ بِي خَيْرًا وَإِنِّي      لَشَرُّ الْخَلْقِ إِنْ لَمْ تَعْفُ عَنِّي

وشاع بين الشعراء أن يكتبوا على شواهد قبورهم أبياتاً ، فيها أحيانا الدعاء ،  
 وفيها أحيانا أخرى ذكر الموت والفناء وأن أحدا لا يقيم في الدار الأولى ، بل الكل  
 راحل ، ويقال إن أبا العتاهية أوصى بأن تُكْتَبَ على قبره هذه الأبيات الأربعة :

أُذِنَ حَيًّا تَسْبِيحِي      اسْمَعِي ثُمَّ عَيِّ وَعَيِّ  
 أَنَا رَهْنٌ بِمَضْجَعِي      فَاحْذَرِي مِثْلَ مَضْرَعِي  
 عَشْتُ تَسْعِينَ حِجَّةً      ثُمَّ وَافَيْتُ مَضْجَعِي  
 لَيْسَ شَيْءٌ سِوَى التَّقَى      فَخُذِي مِنْهُ أَوْدَعِي

وكانت هذه الكتابة على شواهد القبور منتشرة في العالم الإسلامي كله ،  
 ويروى أن ابن شهيد شاعر الأندلس المشهور أوصى أن يكتب على قبره في لوح

ونخام هذا النظم :

يا صاحبي قُمْ فقد أطلنا      أنحن طول المدي هجود<sup>(١)</sup> ؟  
 فقال لي : لن نقوم منها      مادام من فوقنا الصَّعيد<sup>(٢)</sup>  
 تذكرُكم ليلة هونا      في ظلها والزمان عِيدُ<sup>(٣)</sup>  
 كلُّ كان لم يكن، تقضى      وشؤمه حاضِر عَيْد<sup>(٣)</sup>  
 يارب عفواً فانت مؤلّي      قصر في أمرك العَبِيدُ

وهو يأسى على التحول إلى هذه الدار التي لا يقوم منها أهلها ، فقد خُتِمت  
 بحجارة لا تُفْضَح حتى يوم البعث والنشور . ويذكر نعيمه في دنياه ، ويراه  
 كسحابة جادت ، وسرعان ما رحلت . ويفزع إلى ربه يطلب منه العفو والغفران .  
 وأوصى ابن زُهر الطيب الأندلسي المعروف أن تكتب هذه الأبيات على قبره :

تأملُ بحقِّك يا واقِفاً      ولا حظ مكاناً وقعنا إليه  
 ترابُ الضريح على وَجنتي      كأنني لم أمش يوماً عليه  
 أداوى الأنام حذار المنون      وها أنا قد صرتُ رهنًا لديه

ويظهر أن الأندلسيين عُنوا بهذا الجانب ، فكثير منهم نظموا أشعارا وكتبوها  
 على قبورهم ، وأيضا كثير منهم نعوأ أنفسهم حين توقعوا الموت ، وهتف بهم  
 هاتفه ، وللسان الدين بن الخطيب يبكي نفسه :

بُعدنا وإن جاورتنا البيوتُ      وجئنا بوعظٍ ونحن صموتُ  
 وأنفاسنا سكنتُ دفعةً      كجهر الصلاة تلاه القنوتُ

( ١ ) هجود : نيام .

( ٢ ) الصَّعيد : التراب .

( ٣ ) عَيْد : مهيا .

وكنّا عظاما فصرنا عظاما وكنّا نقوت فما نحن قوت<sup>(١)</sup>

وفي كل مكان من العالم العربي تجد هذا الندب والنواح ، فالمأساة واحدة ، وكل يزيد فيها سطرًا أسود حزينًا .

ولعل شاعرًا عربيًّا لم يرث نفسه ويكيها ، كما رثى في عصرنا نفسه وبكاها أبو القاسم الشابي الذي عصف به مرض القلب وهو في ريعان شبابه ، فعاش ييكي نفسه ويندبها ندبًا حارًا لا في مرثية أو مرثيتين ، وإنما في ديوان حافل بألوان الشجى والأسى ، وصف فيه كيف أوصد المرض الأبواب والنوافذ عليه ، فلم يعد يرى إلا هاويته وحفرته . بل إن هذا المصير الذي لا بد وأقد عليه ومته إليه أصبح يطلبه ، إذ يرى فيه منجياته من أوصابه وآلامه ، وهو يسمى هذا المصير « الصباح الجديد » وفيه يقول :

اشكيتُ يا جراح واسكني يا شجون  
مات عهدُ النواح وزماتُ الجنون  
وأطلَّ الصباح من وراء القرون

فساعة الخلاص قد دنت ، وآن له أن يدفن آلامه ، ويغرق أحزانه في خضم اللانهاية فقد دعاه الصباح ، ولم يعد الظلام يستطيع أن يلف جسده في ظلال الألم . إنه راحل وهو سعيد برحيله :

الوداع الوداع يا جبال المهوم  
يا ضباب الأسى يا فيجاج الجحيم  
قد جرى زورقي في الخضم العظيم  
ونشرتُ القلاع فالوداع الوداع

وعلى هذه الشاكلة ما زال الشعراء قديما وحديثا ييكون أنفسهم ويدعون ربهم في ساعات احتضارهم ، وحين يرون الستار يوشك أن يسدّك على قصة حياتهم .

(١) عظام الأول : جمع عظيم ، والثانية : جمع عظم .



## ندب الرسول صلى الله عليه وسلم وآل البيت الكريم

حينما أفل كوكب الرسالة الإسلامية الذي أضاء ما بين المشرق والمغرب هلع الصحابة رضوان الله عليهم ، وفزعوا لهذا النبأ المفجع ، وكاد عمر بن الخطاب أن لا يصدق ، لولا أن رَدَّه أبو بكر إلى صوابه . وخرج الصحابة يصلُّون عليه ويشيعونه إلى مثواه العَظِيمِ بقلوب واجفة وعيون باكية ، ويقال إن ابنته فاطمة كانت تندبه وتقول :

اغْبَرَّ آفاقُ السماء وكَوَّرَتْ	شمسُ النهار وأظلم العصران <sup>(١)</sup>
فالأرضُ من بعد النبي كَثِيْبَةٌ	أسفا عليه كثيرةُ الرجفان
فلَيْتَ بَكَرِ شرقُ البلاد وغربها	وليكه مُضَرٌّ وكلُّ عابِر
وليكه الطُّودُ المعظَّمُ جوَّهُ <sup>(٢)</sup>	والبيتُ ذو الأستار والأركانِ
يا خاتمَ الرسل المباركِ صِنُوهُ <sup>(٣)</sup>	صَلِّ عليك منزل القرآن

واستحالت المدينة المنورة إلى بركان يقذف بحمم الندب والبكاء ، واشتعلت نيران الحزن في كل صدر وفي كل قلب ، لولا أن أخذ الصحابة يتلون في القرآن الكريم مثل قوله تعالى « إنك ميت وإنهم ميتون » « أفئتين متَّ فهم الخالدون ، كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت » . فبدأت السكينة تنزل على نفوسهم ، وثابوا إلى رشدٍهم ليبلغوا رسالته المضيئة أطرافَ الأرض . وكان ممن ندبه فأحسن الندب حسَّان ، وفيه يقول :

( ١ ) كَوَّرَتْ : سقطت ، والعصران : الغداة والعشي إلى احمرار الشمس .

( ٢ ) الطُّودُ : الجبل ، وجوهُ : منخفضه .

( ٣ ) الصنو : القريب والنظير .

بَطِينَةَ رَسْمٍ لِلرَّسُولِ وَمَعَهْدٌ  
وَلَا تَنْمُجِي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ  
وَوَاضِحُ آثَارٍ وَبَاقِي مَعَالِمٍ  
عَرَفْتُ بِهِ رَسْمَ الرَّسُولِ وَعَهْدَهُ  
فَبُورَكْتَ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورَكْتَ  
وَبَكِّي رَسُولَ اللَّهِ يَا عَيْنَ عِبْرَةٍ  
وَجُودِي عَلَيْهِ بِالْدموعِ وَأَعْوِي  
وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ  
مُنِيرٌ وَقَدْ تَعَقُّو الرُّسُومَ وَتَهْمِدُ<sup>(١)</sup>  
بِهَا مَنِيرُ الْمَهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ  
وَرَبْعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلَّى وَمَسْجِدُ  
وَقَبْرًا بِهِ وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحَدُ  
بِلَادٍ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ  
وَلَا أَعْرِفُكَ الدَّهْرَ دَمْعُكَ يَجْمَدُ  
لَفَقْدِ الَّذِي لَا مِثْلَهُ الدَّهْرُ يَوْجَدُ  
وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفَقَدُ

وقد أصبح القبر الكريم مسكا يتطيب به المسلمون كلما حججوا أو اعتمرؤا ،  
فهم يزورونه ويحجون إليه ليُغرقوا أبصارهم في مشاهدته وقلوبهم في رسالته .  
لأنه النور الذي يغمر أفئدتهم والسعادة التي تملأ عقولهم . وإن زيارته لُحلم كل  
مسلم ومسلمة .

ودارت بالصحابة دورات من الزمن ، ثم جاءت خلافة علي بن أبي طالب  
زوج فاطمة بنت الرسول ، فانقسم المسلمون ، وقتل علي بطعنة آثمة من يد بعض  
الخوارج ، وأفضى الأمر إلى معاوية ، ورأى أن تكون الخلافة وراثية في أبنائه .  
وأغضب ذلك طائفة كبيرة من المسلمين وخاصة أهل العراق ، وقالوا أين آل  
البيت ؟ وأين الحسين بن علي حفيد رسول الله ؟ .

ولم تلبث عقيدة الشيعة أن ظهرت ظهوراً بيناً ، كان لها ظهور قديمة ،  
ولكننا لا نصل إلى عصر يزيد بن معاوية حتى ترتفع شجرتها ، وتتطور الحوادث  
ويصرع الحسين بن علي وهو في طريقه إلى شيعته بالكوفة بمكان يسمى « كربلاء »  
ويُقضى على كل من تحدثه نفسه من أبنائه أن يطلب الأمر إلى دين القاتلين  
عليه سواء أكانوا أمويين أم عباسيين .

وفي هذه الأثناء كان التشيع يتحول عقيدة ثابتة في نفوس من والوا علياً

وأبناءه ، وكان الشعراء يكثرُونَ من نظم المراثي فيهم . ومن أهم من نصب نفسه لهذه الغاية في العصر الأموي الكُثَمَيَّة شاعر زيد بن علي بن الحسين ، فله ديوان يسمى الهاشميات ، وكله سخط على بني أمية ورثاء لآل البيت ، وأهم من رثاهم في العصر العباسي دِعْبِل في مراثيه المشهورة :

مدارسُ آياتٍ خَلَّتْ من تلاوةٍ ومنزلٍ وحيٍ مُقْفِرُ العَرَصاتِ

ويريد بالمدارس الأماكن التي يدرس فيها القرآن الكريم ، فهذه المدارس عطلت كما عطل وعفا منزل الوحي النبوي . واستمر يذكر دور العلويين وأنها خلت وأقفرت من أهلها ، ثم أخذ يذكر قبورهم في المدينة ومكة والكوفة وكربلاء ، وما زال حتى قال موجهاً الحديث إلى من يلومه في تشيعه :

ملاَمَك في أهل النبي فأنهم أَحِبَّائِي ما عاشوا وأهلُ ثِقَاتِي  
فيا رَبِّ زِدْنِي من يقيني بصيرةٍ وَزِدْ حُبَّهُمْ يا رَبِّ في حسَنَاتِي  
بنفسي أَنتم من كهولٍ وَفَتِيَّةٍ لَفَكِّ عُنَاكِ أو لِحُلِّ دِيَاتِ<sup>(١)</sup>  
أَحِبُّ قَصِي الرَّحْم من أَجَلِ حُبِّكُمْ وَأَجْرُ فيكم أُسْرَتِي وَبَنَاتِي<sup>(٢)</sup>  
لقد حُقَّت الأيام حولي بشرُّها وَإِنِّي لأَرْجو الأَمَن بعد وفاتي  
ولولا الذي أَرْجوه في اليوم أو غدٍ لَقَطَعْتُ قلبي إِثْرَهُمْ حَسْرَاتِي

والمرثية طويلة ، وكلها على هذا النحو بكاء لأهل البيت ومحبة ووجد شديد ، وهذه المرثية العامة في آل البيت كانت تقرن بها مراث خاصة كثيرة ، والطريف في هذه المراثي الشيعية أن شعراءها يتنافحون فيها عن عقيدة . ومن أجل هذه الناحية البارزة في تلك المراثي نجد لها تمتاز بحيوية قوية ، إذ العاطفة فيها تنعق الشاعر ، ومن هنا تصبح مشاعره فؤارة حارة ، تقذف سيلاً ملتهباً .

ويدور بنا الزمن وإذا بنا في القرن الرابع للهجرة ، ويحقق العلويون لشيعتهم

(١) المناة : جمع عان وهو الأسير ، والدِيَات جمع دية وهو المهرم الذي يدفعه من أجرم .

(٢) الرحم : القرابة .

شيئاً من حلمهم ، إذ يؤسسون الدولة الفاطمية بمصر والمغرب ، ويستولى بنو حمود العلويون على قرطبة من الأمويين ، ويصبح العراق وإيران تحت حكم البويهيين الشيعة ، فلا تجف الدموع التي تنحدر من آفاق الشيعة ، بل يجعلون لها مواسم معلومة ، كأن الدموع أصبحت رمز عقيدتهم ، وكان الألم العنيف أصبح ترجمانها .

وكان أهم موسم للألم والدموع يوم عاشوراء ، وهو العاشر من المحرم ، الذي صرع فيه قديماً الحسين فهذا اليوم كان يتحول إلى مأتم كبير في كربلاء ، إذ يلبس الشيعة المسوح ويبالغون في النوح والطم والبكاء . ولا نصل إلى سنة ٣٥٢ للهجرة حتى يأمر معز الدولة البويهى حاكم بغداد أهلها بأن يغلّقوا حوانيتهم ويعطلوا أسواقهم في هذا اليوم احتفالاً به ، ولم يأمرهم بذلك فحسب ، بل أمرهم أيضاً بأن يتخذوا المسوح السوداء وأن يبكوا وينوحوا في طرقات البلد ، وأن تخرج النساء مشعثات الشعور مسودّات الوجوه قد شققن ثيابهن ويلدن في البلد بالنواح والطم .

وهذا النواح الدائر على الحسين وآل البيت أنتج ما لا يحصى من مرث ، وهي مرث ملتاعة ولن نستطيع أن نعرض في هذا الكتيب كل ما قيل من ذلك . وقرأ هذه الأبيات للشريف الرضى يبكي جده الحسين وينوح عليه :

يا قتيلاً قوّض الدهرُ به	نعمد الدين وأعلام الهدى
قتلوه بعد علم منهم	أنه خامس أصحاب الكا <sup>(١)</sup>
مرهتاً يدعو ولا غوث له	بأب برّ وجَدّ مصطقى
وبأمر رفع الله لها	علماً ما بين نسوان الورى
أى جدّ وأب يدعوها ؟	جدّ ، يا جدّ أغثنى ، يا أبا
يا رسول الله يا فاطمة	يا أمير المؤمنين المرتضى

(١) يشير إل ما يروى من أن رسول الله التفت في كساء يمين بيت فاطمة ولف معه به عليا وفاطمة والحسن والحسين ، وقال : هؤلاء عترتي وأهل بيتي .



كَيْفَ لَمْ يَسْتَعْجِلِ اللَّهُ لَمْ      بِانْقِلَابِ الْأَرْضِ أَوْ رَجَمِ السَّمَاءِ<sup>(١)</sup>  
 حَمَلُوا رَأْسًا يَصَلُّونَ عَلَى      جَدِّهِ الْأَكْرَمِ طَوَّعًا وَإِبَاءً  
 مَيِّتٌ تَبَكَى لَهُ فَاطِمَةُ      وَأَبُوهَا وَعَلَى ذُو الْعُلَا  
 لَوْ رَسُولَ اللَّهِ يَحْيَى بَعْدَهُ      قَعْدَ الْيَوْمِ عَلَيْهِ لِلْعَزَا

ولا فرتاب في أن بعض هذه الآيات كان يصيح به الناس في بغداد لحياة الشريف وبعد حياته . فكل بيت منها بثير ويحمس ، بل يفجر الدموع أنهاراً . فلا غرو أن تعاقب الشيعة من عصر الشريف الرضي إلى عصرنا ينظمون المراثي في الحسين ، وخاصة في بلدة « النجف » بالعراق ، فلكل شاعر هناك مراثيه التي تفيض بالألم . ويشارك ش شعراء النجف غيرهم من شعراء العراق المعاصرين ، ولحمد مهدي الجواهري قصيدة عنوانها « آمنت بالحسين » يقول فيها :

فَيَا بْنَ الْبَتُولِ وَحَسْبَى بِهَا      ضَمَانًا عَلَى كُلِّ مَا أَدَّعَى<sup>(٢)</sup>  
 وَيَا بْنَ الَّتِي لَمْ يَضَعْ مِثْلَهَا      كَذَلِكَ حَمَلًا وَلَمْ تُرْضَعْ  
 وَيَا بْنَ الْبَطِينِ بَلَا بَطْنَةٍ      وَيَا بْنَ الْفَقِي الْحَاسِرِ الْأَنْزَعِ<sup>(٣)</sup>  
 وَيَا غُصْنِ هَاشِمٍ لَمْ يَنْفَتَحْ      بِأَزْهَرِ مَنْكَ وَلَمْ يُفْرِعْ<sup>(٤)</sup>  
 وَيَا وَاصِلًا مِنْ نَشِيدِ الْخُلُودِ      خَتَامَ الْقَصِيدَةِ بِالْمَطْلَعِ  
 يَسِيرُ الْوَرَى بِرُكَابِ الزَّمَا      نَ مِنْ مَسْتَقِيمٍ وَمِنْ أَظْلَمِ<sup>(٥)</sup>

(١) الرجم : الرمي بالحجارة .

(٢) البتول : فاطمة الزهراء .

(٣) البطين : من صفات علي بن أبي طالب ، ويقول إنه بطين بلا بطننة أي بلا شره ولا نهم ، والحاسر : الأنزع الذي انحسر شعره عن جانبي وجهه .

(٤) يفرع : يخرج من فرع .

(٥) أظلم : أعرج .

وأنت تسيّر ركبَ الخلو د ما تستجدُّ له يتَّبِعـ

وعلى هذا النحو لا يزال مصرع الحسين حتى عصرنا يوحى لشعراء الشيعة بمراثى هي الغاية في الحزن الممض والألم المحرق .

## ٥

### ندب الدول

الدول العربية التي سقطت في خلال التاريخ الوسيط كثيرة ، وقد كانت الدولة العربية زمن بنى أمية تشمل العالم الإسلامى كله ، وما غربت هذه الدولة في أفق التاريخ وبزغت الدولة العباسية ، حتى تراءى للعين أن المحيط الذى يضم هذا العالم ويربط بينه خيط واحد . وسرعان ما طمع الولاة في الأطراف ، وطمحوا إلى الاستقلال ، ونشأت القوميات في المغرب والشرق ، فإذا العالم الإسلامى دول لا تكاد تحصى . وما يرتفع نجم دولة ويبلغ عنان السماء ، حتى يميل إلى الغروب ، ولا تقوم دولة ويشتهد هاعدها ، حتى تشيخ وتهرم وهي لا تزال في شبابها . وكأنهم لم يستطيعوا أن ينسوا أيامهم وحروبهم وتقسيمهم قبائل في الجاهلية ، فأعادوها جلدعة منذ العصر العباسى ، بل من قبله ، لولا قوة الأمويين وحسن تدبيرهم . وما كاد العباسيون يستولون على العرش حتى بدا التصدع واضحاً في بناء الدولة ، وأخذ العرب لا يطمئنون ولا يهدئون في صقع من أصقاع العالم الإسلامى وأخذت الدول تقوم ثم تسقط متعاقبة ، وكثير من الدول كان يشيع بالعبرات وأشعار الشعراء .

وأول دولة بكهاها الباكون دولة بنى أمية التي سقطت سنة ١٣٢ للهجرة ، وأهم من بكهاها أبو العباس الأعشى الشاعر المكئى الذى أخذ يرسل دمه على خلفائها ، ويثن لهم وللولتهم أنيناً ، وفيهم يقول :

ليت شعري أفاح رائحة المسك<sup>(١)</sup> وما إن أخال بالخليف<sup>(٢)</sup> إنسى  
حين غابت بنو أمية عنه<sup>(٣)</sup> والبهليل<sup>(٤)</sup> من بنى عبد شمس<sup>(٥)</sup>  
خطباء على المنابر قرأ ن<sup>(٦)</sup> عليها وقالة<sup>(٧)</sup> غير خرس

وله فيهم أشعار ومراث أخرى ، وهي كلها تفيض بالعاطفة الصادقة .  
ونمضي في العصر العباسي ، وإذا بهرون الرشيد ينكب البرامكة نكبتهم  
المشهورة ، وكانوا قد استولوا على كل مرافق الدولة ، وعظم سلطانهم ، وجمعوا  
الشعراء من حولهم يغدقون عليهم عطاياهم ، فلما دالت دولتهم وقف الشعراء  
يبيكونهم ويسفحون الدمع عليهم ، وفيهم يقول أشجع :

كأنما أيامهم كلها كانت لأهل الأرض أعيادا

ويقول سلم الحاسر :

هوت أنجم الجدوى<sup>(٨)</sup> وشلت يد القدي وغاضت بحور الجود بعد البرامك  
هوت أنجم كانت لأبناء برمك بها يعرف الحادي طريق المسالك

ويقول الرقاشي ، وقد ذكر الفضل وأخاه جعفر :

ألآن استرحنا واستراحت ركابنا وأمسك من يجدي ومن كان يجتدي<sup>(٩)</sup>  
فقل للعطايا قد أميت من السرى وطى الفياق قد فدا بعد قد فدا<sup>(١٠)</sup>

(١) الخيف : ما النحر من الجبل ، وبجكة أغياف مختلفة لكثرة الجبال حولها ، وكلها  
تنهى إلى بطائعها .

(٢) البهليل : جمع بهلول وهو السيد ، وبنو عبد شمس : بنو أمية ، وعبد شمس : أحد  
أجدادهم في الجاهلية .

(٣) قالة : جمع قائل .

(٤) البهليل : المطاء .

(٥) يجدي : يعطى ، ويجتدي : يستعطى ويستمنح .

(٦) الفدا : الغلاة .

وَقُلْ لِلْعَطَايَا بَعْدَ فَضْلٍ تَعَطَّلَى      وَقُلْ لِلرَّزَايَا كُلَّ يَوْمٍ تَجَدَّدَى  
وَقُلْ لِلْمَنَايَا قَدْ ظَفَرَتْ بِجَمْفَرٍ      وَلَنْ تَظْفُرَى مِنْ بَعْدِهِ بِمَسْوَدٍ

ونُظم في البرامكة شعر كثير ، وخاصة لأن الشعراء من الفرس بكوا فيهم  
زوال السلطان من أمتهم وتحوله إلى غيرهم .

ولما قتل المتوكل الخليفة العباسي المشهور نزل الحزن بقلب شاعره البحرى ،  
وكان قد قتله وليُّ عهده وطائفة من الترك الذين استكثر منهم المعتصم ،  
واستبدل بهم العرب والفرس جميعاً ، ولم يلبثوا أن سيطروا على الدولة .

وفكر البحرى فيما صارت إليه الدولة من ذلك ، وفكر في الفرس وما قدموه  
لها من خدمات ، فهم الذين أقاموها ، وهم الذين رعوها خير رعاية ، حتى إذا  
أفل نجمهم أخذت الدولة تتكس نحو مغربها . ومرَّ البحرى بالمدائن ورأى  
ليوان كسرى : « قصره الأبيض » وما بقى من أطلاله ورسومه ، فوصفه وصفاً بليغاً  
رثى في أثنائه صانعيه وندبهم ، ومن قوله فيهم وفيه :

حضرت رَحَلِيَّ المومُ فوجَّهْتُ      تُ إِلَى أَيْضِ المدائن عَنِّي<sup>(١)</sup>  
أَتَلَى عَنْ الحُظُوظِ وَأَمَى      لِحُلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسِ<sup>(٢)</sup>  
ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخَطُوبُ التَّوَالِي      وَلَقَدْ تَذَكَّرُ الْخَطُوبُ وَتُنْسِي<sup>(٣)</sup>  
وَهُمْ خَافِضُونَ فِي ظِلِّ عَالٍ      مُشْرِفٍ يُخْسِرُ الْعِيُونَ وَيُخْسِي<sup>(٤)</sup>  
وَكَأَنَّ الْجُرْمَازَ مِنْ عَدَمِ الْإِنْسِ      مِنْ إِخْلَالِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِ<sup>(٥)</sup>  
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي      جَعَلَتْ فِيهِ مَاتِمًا بَعْدَ عُرْسِ

(١) المنس : الناقة القوية .

(٢) آمى : أحزن ، وآل ساسان : أكاسرة الفرس ، ودوس : داروس وعاف .

(٣) التوالى : المتتالية .

(٤) خافضون : راغلو العيش ، والعالي : القصر الأبيض ، ويخسر : يضعف ، ويخسى : يؤلم .

(٥) الجرماز : بناء بجوار القصر ، والرمس : القبر .

ونقل بعد ذلك نقلاً بديعاً صورة رآها منقوشة على حيطان الإيوان ، وهي تصور معركة بين الفرس والروم ، انتصر فيها الأولون . ثم استمر يصور أبادى الفرس على العرب ويبكيهم .

وما زال العباسيون يعانون من الترك وغيرهم حتى غزا هولاكو بغداد وخرّبها ، وأزال خلافتهم ورمى بها وبالتاريخ الباهر العظيم في دجلة ، فبكى الشعراء من الأعماق ، ومن خير من بكى وناح شمس الدين الكوفي ، وفيهم يقول بأحدى مرثياته :

ما للنازل أصبحت لأهلها	أهل ولا جيرانها جيرانى
أين الذين عهدتهم ولعزم	ذلاً تخزّ معاقد التيجان
كانوا نجوم من اقتدى فعليهم	يبكى الهدى وشعائر الإيمان
أفتهم غير الحوادث مثلما	أفت قديماً صاحب الإيوان <sup>(١)</sup>
ما زلت أبكيهم وأثم وحشة	لجأهم متهمم الأركان
حتى رمى لى كل من ما وجدّه	وجدى ولا أشجانه أشجاني

ومن الدول التى أكثر الشعراء من بكائها والنواح عليها دول ملوك الطوائف بالأندلس فإنهم لما استغاثوا بيوسف بن تاشفين ملك المرابطين فى المغرب ضد الأسبان الشماليين فى بلادهم ، ورأى ما هم فيه من ضعف ووهن شديد ، فكر فى الاستيلاء عليهم حتى يحفظ للإسلام والعرب هذا الجزء الذى يكاد يتداعى ، ولم يلبث أن اتفقهم ملكاً وراء ملك ودولة وراء دولة .

وشيع شعراء الأندلس هذه الدول بالعبرات الغزار ، إذ كانوا يرضونهم غير رعاية ، وأهم الدول التى رثوها وبكوها دولة بنى الألفطس فى بطليوس ودولة بنى عباد فى إشبيلية . أما الأولى فرثاها ابن عبدون بقصيدة طويلة طارت شهرتها ، وهو يستهلها بقوله :

الدَّعْرُ يَفْجَعُ بِسَدِّ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ      فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالصُّوَرِ (١)  
مَالِيَالِي ؟ أَقَالَ اللَّهُ عَزَّزَنَا      مِنْ اللَّيَالِي وَخَاتَمَهَا يَدُ الْغَيْرِ (٢)

واستمرسل يتحدث عن الدول التي دالت من الأكاسرة والعرب في عصورهم المختلفة حتى انتهى إلى بني الأفطس فندبهم بمثل قوله :

بَنِي الْمَظْفَرِ وَالْأَيَّامُ .. مَا بَرِحَتْ      مَرَاحِلًا وَالْوَرَى مِنْهَا عَلَى سَفَرِ  
سُحْقًا لِيَوْمِكُمْ يَوْمًا وَلَا حِلَّتْ      بِمِثْلِهِ لَيْلَةٌ فِي غَارِ الْعُمَرِ (٣)

وأما دولة بني عباد ، فلعل خير من تفجع عليها ابن اللبانة ، وقد حل يوسف بن تاشفين المعتمد بن عباد آخر ملوكها مقيداً في أغلاله مع من بقى من أسرته إلى أغصمات بالقرب من مراکش . ووقف ابن اللبانة نفسه على بكائه وبكاء أسرته ، وله قصيدة بديعة يصف فيها خروجه من إشبيلية محمولا على سفن ابن تاشفين بنهر الوادي الكبير الذي يجري أمام بلدته ، وفيها يقول :

تَبْكِي السَّمَاءُ بِمُزْنٍ رَائِحٍ غَادٍ      عَلَى الْبِهَالِيلِ مِنْ أَبْنَاءِ عِبَادِ (٤)  
عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا      وَكَانَتِ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادِ (٥)  
يَاضِيفُ أَقْفَرِيَّتُ الْمَكْرَمَاتِ فَخْدُ      فِي ضَمٍّ رَحْلِكَ وَاجْمَعِ فَضْلَةَ الزَّادِ  
وَيَا مُؤْمِلَ وَادِيهِمْ لَيْسَكُنَّ      خَفَّ الْقَيْطِينَ (٦) وَجَفَّ الزَّرْعُ بِالْوَادِي  
نَسِيتُ إِلَّا غَدَاةَ النَّهْرِ كَوْنَهُمْ      فِي الْمُنَشَّاتِ كَأَمْوَاتٍ بِالْحَادِ (٧)

(١) من أمثال العرب : لا تطلب أثراً بعد عين ، وما البكاء : ماذا يفيد البكاء .

(٢) النير : أحداث الدعر .

(٣) سحقا : بعدا ، النابز هنا : المستقبل .

(٤) المزن : السحاب المطر ، والبهاليل : السادة .

(٥) الأوتاد : الجبال ، يقول إنهم كانوا أوتاد الدول في الأندلس كما أن الجبال أوتاد الأرض .

(٦) القطين : السكان .

(٧) المنشآت : السفن ، والأحاد : القبور .

والناسُ قد ملأوا العبرين واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أرباد<sup>(١)</sup>  
 حطّ القناع فلم تُستَرْ مُحَدَّرَةٌ ومزقت أوجه تمزيق أرباد<sup>(٢)</sup>  
 حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخ من مُفَدَّاةٍ ومن قادِ  
 سارت سفائنهم والنوح يصحبها كأنها إبلٌ يحدو بها الحادي  
 كم سال في الماء من دمعهم ولم حلت تلك القطائع<sup>(٣)</sup> من قطعات أكباد

وما نظن شاعراً استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه ابن اللبانة في بكاء الدولة  
 العبادية فقد اقتطع بكاءه عليهم من فؤاده .

وعلى نحو ما بكى شعراء الأندلس دول الطوائف ببلادهم بكى شعراء مصر  
 بعض الدول التي لمعت ثم أفلت في أفقهم ، وأول دولة إسلامية بكوها  
 دولة الطولونيين ، وفيهم يقول بعض الشعراء :

كانوا مصاييحاً لدى ظلم الدجى يسرى بها السارون في الإدلاج<sup>(٤)</sup>  
 انظر إلى آثارهم تلتقى لها علماً بكل ثنية وفجاج<sup>(٥)</sup>  
 ولما زالت الدولة الفاطمية بكى عمارة اليمنى عليها بكاء ، فيه لدغ وحرارة ،  
 وتلك قطعة من بكائه عليهم وندبه لهم :

رمت يا دهر كفة المجد بالشلل وجيده بعد حُسن الحل بالعطل<sup>(٦)</sup>  
 هدمت قاعدة المعروف عن عجل سقيت مهلاً<sup>(٧)</sup> أما تمشى على مهل

(١) العبرين : ضفتي النهر ، واعتبروا : تعجبوا .

(٢) الأرباد : الثياب ، وهو هنا يصور نساء بني عباد وما صنعتن أثناء الرحيل من سفور ولطم  
 للوجوه وخش لها بالأظفار .

(٣) القطائع : السفن .

(٤) الإدلاج : السير بالليل .

(٥) الثنية : الطريق في الجبل ومثلها الفج وجمعه فجاج .

(٦) العطل : التجرد من الحل .

(٧) المهل : النحاس المذاب ، وهو من عذاب أهل النار المذكور في القرآن .

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم ولا نجا من عذاب النار غير ولى  
أئمة خلّقوا نوراً فنورهم من نور خالص نور الله لم يقل<sup>(١)</sup>

وكان حريا بعمارة أن يفرح كما فرح المصريون بزوال الدولة الفاطمية  
وتحول السلطان إلى صلاح الدين الذى أنقذ مصر من براثن الانحلال  
الذى انتهت إليه هذه الدولة . وما نشك في أن تشيع عمارة للفاطميين هو الذى  
جعل على بصره غشاوة ، فلم يشارك المصريين في أفراحهم بسقوط تلك الدولة .  
ونمضى بعد الأيوبيين إلى المماليك إذ يقضى عليهم السلطان سليم العثماني سنة  
٩٢٣ للهجرة ، ونرى ابن لباس يصبح لزوال دولتهم :

نوحوا على مصرٍ لأمرٍ قد جرى من حادثٍ عمت مصيئته الورى  
زالت عساكرها من الأتراك في غمض الميون كأنها سِنَّةُ الكرى

وتحكم مصر بعد ذلك بالعثمانيين حكماً جائراً كله بطش واستبداد  
واستنزاف لخيراتها ودمائها ويزولون كما زالت الأسرة العلوية بعدهم . وطبيعى  
أن لا يبكى العثمانيين ولا الأسرة العلوية باك فقد ذهبوا غير مأسوف عليهم  
بل ذهبوا مع فرح الشعب العميق بزوالهم لما أشاعوا من ظلم وفساد في  
الحكم وبني وطغيان شديد .

(١) يقل : يأفل ويفرب .



## ندب البلدان

وإذا كان الشعراء يبكوا بعض الدول الزائلة فلأنهم بكوا أيضاً البلدان حين نزلت بها الحوادث القاصمة ، أو أملت بها بعض الدول الغاصبة . وفي كل مكان من العالم الإسلامي نجد هذا اليكاء ، في الشرق والغرب . أما في الشرق فلعل أول بلدة حاقت بها كلوثة ساحقة هي بغداد ، إذ حرقها ابن طاهر قائد المأمون أثناء حصاره لأنجي الأمين ، فقد سلب عليها مجانيقه ، فتحوّلت ناراً أمت على كل شيء فيها ، وكأن قصورها التي طالما أشاد بها الشعراء لم تكن شيئاً مذكوراً . وأثرت هذه الحادثة المقيجة في قلوب كثير من الشعراء ، فقال بعضهم يندبها ويبكيها :

بكت عيني على بغداد لما	فقدت غصارة العيش الأنيق
أصابتها من الحساد عين	فأنت أهلها بالمتجنيق
قوم أحرقوا بالنار قسراً	ونائمة تنوح على غريق
وصائحة تنادي واصحاب	وقائلة تقول أيا شقيق
ومغرب بيد الدار ملق	بلا رأس بقارعة الطريق
ولا ولد يعوج على أييد	وقد هرب الصديق عن الصديق

وليست بغداد وحدها التي بكأها الشعراء في العصر العباسي فقد بكوا البصرة حين اقتحمها الزنج على سكّانها ، ويظهر أنهم كانوا يسومونهم الخسف والعذاب ويكلفونهم من العمل فوق ما يطيقون ويحملون ، فائتمروا بهم ، وما هي إلا أن ثاروا عليهم ، فقتلوهم وخرّبوا ديارهم وباعوهم في الأسواق بيع العبيد . وأثر ذلك في نفس ابن الرومي تأثراً بليغاً ، فنظم قصيدة طويلة في بكاء البصرة وأهلها يقول فيها :

كَمْ أَغْصُوا مِنْ شَارِبٍ بِشْرَابٍ      كَمْ أَغْصُوا مِنْ طَاعِمٍ بِطَاعِمٍ  
 كَمْ ضُنِينَ بِنَفْسِهِ رَامَ مَنْجَى      فَتَلَقَوْا حَيْنَهُ بِالْحَسَامِ  
 كَمْ أَخْرَجَ قَدْ رَأَى عَزِيزٌ بَنِيهِ      وَهُوَ يُعَلِّي بِصَارِمٍ صَمَامِ  
 كَمْ رَضِيعَ هُنَاكَ قَدْ فَعَلَمُوهُ      بِشَبَا السِّيفِ قَبْلَ حَيْنِ الْقَطَامِ  
 كَمْ فَتَاةٍ بِخَتَامِ اللَّهِ بَكَرِي      فَضَحَوْهَا جَهْرًا بِغَيْرِ اكْتِمَامِ  
 كَمْ فَتَاةٍ مَصُونَةٍ قَدْ سَبَّوْهَا      بَارِزًا وَجْهَهَا بِغَيْرِ لَثَامِ  
 صَبَّحُومَ فَكَابَدَ الْقَوْمَ مِنْهُمْ      طَوْلَ يَوْمٍ كَأَنَّهُ أَلْفَ عَامِ

وصورَ تحريقَ الزنج لقصور البصرة ، وبكى رسومها وأطلالها ومسجدها ،  
 واستنجد المسلمين واستغاث بهم على نصرتها ، ودعاهم أن يتفروا خيفاً وشقلاً ،  
 حتى ينتقموا منهم شر انتقام .

ونمضى إلى عصر الحروب الصليبية فنجد الشعراء يبيكون مدن الشام التي  
 كانت تسقط في أيدي الصليبيين ، ولم يبيكو مدينة كما بكوا بيت المقدس حين  
 استولى عليها الفرنج سنة ٤٩٢ للهجرة ، ومن طريف ما قيل فيها :

أَلَلَّ الْكُفْرُ بِالْإِسْلَامِ ضَيْبًا      يَطُولُ عَلَيْهِ لِلدِّينِ النَّحِيبُ  
 فُحِقَ ضَائِعٌ وَجِمَى مُبَاحٌ      وَسِيفٌ قَاطِعٌ وَدَمٌ صَيِّبٌ (١)  
 وَكَمْ مِنْ مُسْلِمٍ أَمْسَى سَلِيبًا      وَمَسْلَعٍ لَهَا حَرَمٌ سَلِيبُ  
 أَمَا لِلَّهِ وَالْإِسْلَامِ حَقُّ      يَدَافِعُ عَنْهُ شُبَّانٌ وَشَيْبُ

على أن موجة الصليبيين لم تلبث أن دفعت بقوة إلى الراء ، ولم تلبث أن  
 حلت أشعارُ الفتح والظفر محل أشعار الندب والراء .

ومن البلاد التي بكأها المسلمون صقلية حين سقطت في أيدي النورمان حول  
 منتصف القرن الخامس للهجرة ولشاعرها ابن حديد قصائد مختلفة يرثيها فيها  
 ويندبها ، ومن قوله في بعض قصائده :

أرى بلدى قد سامه الرومُ ذلةً      وكان بقوى عزه متقاعسا  
وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه      فأضحى لذلك الخوف منهن لابساً

وفى نفس التاريخ هاجم البدو القيروان وخربوها ، وبكائها شعراؤها هي  
الأخرى ، ومن قول شاعرها ابن شرف :

آهِ للقيروان أنَّهُ شَجَوِ      عن فؤادٍ يجاحم الحزن يَصَلِّ  
حين نحاتتْ به الديار قبوراً      بل أقول الديار منهن أخلِّ  
بعد يومٍ كأنما حُسِرَ الخَلْدُ      قُ حُفَاةً به عوارى رَجَلِ  
مُزَّقوا في البلاد شرقاً وغرباً      يسكبون الدموع هَطْلًا وَوَبْلًا

ولعل قطرا إسلاميا لم تُبِكَ بلدانه ومدنه كما بُكِيت مدن الأندلس وبلداتها ،  
فقد أخذ الأسبان الشهابيون يستخلصونها لأنفسهم ، وأخذت تتساقط منذ عصر  
ملوك الطوائف في حجوهم كما تتساقط أوراق الخريف . وكانت كل مدينة  
تسقط لا تعود أبداً ، والمسلمون يرون ذلك رأى العين ، يرون ما يهدد ديارهم من  
غزو ودمار ، وكلمتهم متفرقة وأهواؤهم غير مجتمعة يتأبد الأخ أخاه وتنابد المدينة  
أختها ، والعدو على الأبواب يتربص بهم الدوائر . وما زال الشعراء هناك يحزنون  
وينذرون ويستغيثون ويستنصرون ، وكلما ضاعت بلدة أو مدينة ذرفوا الدموع  
حارة سخينة . ومن البلدان التي أكثر الشعراء من رثائها وندبها حين استولى عليها  
الأسبان طَلَيْطَلَّةً وبلَنْسِيَّةً وشاطبة وقُرْطبة وجِيَّان وإشبيلية ، ومن أروع  
ما بُكِيت به الأخيرة قول أبي البقاء الرُّندى ، وقد عرض لما سلب من البلاد قبلها :

اسألْ بَلَنْسِيَّةَ ما شَأْنُ مَرْسِيَّةِ      وأين شاطبة أم أين جِيَّانُ  
وأين قرطبة دار العلوم فكم      من عالم قد سما فيها له شانُ  
وأين رَحْصٌ<sup>(١)</sup> وما تحويه من نَزَمِ      ونهرها العذبُ فياضٌ وملآنُ

(١) رحص : إشبيلية .

بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم      واليوم هم في بلاد الكفر عبّدان  
 وربّ أمّ وطفلي حيل بينهما      كما تفرّق أرواح وأبدان  
 وطفلة مثل حُسن الشمس إذ طلعت      كأنما هي يا قوت ومرجان  
 يقودها العليج<sup>(١)</sup> للكره مكرهة      والعين باكية والقلب حيران  
 لئلا هذا يذوب القلب من كمد      إن كان في القلب إسلام وإيمان

وبدور الزمن بنا دورات حتى تصل إلى العصر الحديث ، فإذا القصة تعاد  
 فصولها ، وإذا أوروبا الشرقية تجمع أمرها أمام الخلافة التركية تريد أن تخرجها  
 من ديارها ، وتردها إلى آسيا على أعقابها وتكون حروب ودماء . وتغلب تركيا  
 على أمرها من حين إلى حين ، وتضيق بعض بلدانها . ولشوقي قصيدة يبكي فيها  
 « أدريّة » حين استولى عليها البلغار سنة ١٩١٢ للميلاد ، وقد سماها الأندلس  
 الجديدة ، إشارة إلى أن الكارثة فيها تجديد لكارثة المسلمين في الأندلس العربية ،  
 فهما جرحان ، جرح قديم لم يلتئم بعد ، وجرح لا يزال يتزف بالدماء . وفي  
 هذه القصيدة يقول :

عيسى سبيلك رحمة ومحبة      في العالمين وعصاة وسلام  
 اليوم يهتف بالصليب عصاب<sup>(٢)</sup>      هم للإله وروحه ظلام<sup>(٣)</sup>  
 خلطوا صليبك والخناجر والمدى      كل أداة للأذى وجمام  
 أو ما ترام ذبحوا جيرانهم      بين البيوت كأنهم أعنّام  
 كم مريض في حبر نسمته غدا      وله على حدّ السيوف فطام  
 وصبيّة هتكت خيلة طهرها      وتناثرت عن نوره الأكام<sup>(٣)</sup>  
 وأخي ثمانين استبيح وقاره      لم يبق عنه الضعف والأعوام

(١) العليج : الكافر من المعجم .

(٢) المصائب : جمع عصابة وهي الجماعة ، وظلام : جمع ظالم .

(٣) الخيلة : الروضة والشجر الملتف .

ولما نكس الفرنسيون دمشق سنة ١٩٢٦ وسلطوا عليها مدافعهم وقذائفهم ،  
وأحالوها أنهارا من الدم وتلالا من الرماد والحراب بكأها شوق بقافيته المشهورة ،  
وفيها يقول :

رباعُ الخلد ويحك مادهاها      أحقُّ أنها درستُ أحقُّ  
وهل عُرِفَ الجنان منضدات<sup>(١)</sup>      وهل لنعيمهن كأمسٍ نَشَقُّ  
وأين دُمى المقاصر من جبال<sup>(٢)</sup>      مُهتَكَةٌ وأستارٍ نَشَقُّ  
برَزَنَ وفي نواحي الأيكة<sup>(٣)</sup> نارٌ      وخَلَفَ الأيكة أفرانُ تَزَقُّ  
بليلٌ للقذائف والمنايا      وراء سمانه خَطَفٌ وصَقُّ  
إذا عَصَفَ الحديدُ احمرَّ أفقٌ      على جنباته واسودَّ أفقُ  
والحرية الحراء بابٌ      بكل يدي مضرجة يدقُّ

وتجاوبت مع شوق وشعراء العروبة في الشرق صبيحات إخوانهم شعراء  
المهجر في الغرب ، سيكون ويصيحون ويولولون على ما أصاب دمشق من فظائع  
الفرنسيين ، ولنسيب عريضة من منظومة :

صليلُ سلاحٍ وقرعُ طبولٍ      وجُنْدُ قَسَاةٍ تسوق الحولُ  
وفوق النياق حاةُ القليلِ      تدلُّوا قتيلاً بجانب قَتِيلِ

ولعل بلدا عربيا في عصرنا لم يبكه الشعراء كما بكوا فلسطين الشبيبة ، التي  
سالت دماء أبنائها في ساحاتها ، وشرَّد اليهود البقية الباقية منهم في أطراف العالم  
العربي وعلى المشارف والحدود . ولا تزال المأساة ، أو قل لا يزال مآثمها قائما ،  
والعالم الإسلامي كله يليس السواد من أجلها ، ويعطن الحداد على ما أصابها  
وأصاب العرب فيها .

(١) منضدات : منسقات .

(٢) المقاصر : الغرف ، والجبال : جهاز العروس .

(٣) الأيكة : الشجر الكثير المتجمع .

ومنذ وعُد « بلفور » لليهود والعرب ينتظرون اليوم المشئوم ، يوم خروج أبناء  
عمومتهم من ديارهم ، وهو ما لم يحدث في العالم لا قديما ولا حديثا ، فلم نسمع  
قبل اليوم أن أمة بغت على أخرى ، وسلبتها وطنها وخلدتها وفراديسها ، يعينها  
في ذلك من يتشدقون بالحريات . وحز ذلك في أنفس العرب فأبوا أن يتركوا  
عرينهم دون أن يلطخوه بالدماء ، وتعاقدت دولهم ، ونخاضت خمار حرب  
رجفت لها الأرض والسماء ، وقد تعالى في أثنائها صياح الشعراء في البلاد العربية ،  
من مثل قول علي محمود طه من قصيدته « نداء الفداء » :

أخى جاوزَ الظالمونَ للدى      لحقَّ الجهادُ وحقَّ الفدا  
أنتركهم ينصبون العروب      ة تجذَّ الأبوَّة والشوَّدا  
وليسوا بغير صليل السيوفِ      يحيون صوتًا لنا أو صدَى  
لجرَّد حسامك من غمده      فليس له بَمْدُ أن يُفمدا

والقصيدة كلها على هذا المنوال صراخ في العرب حتى يسارعوا لنجدة  
فلسطين التي تسلمها اليهود للعبيين ، وهم يشعلون لها مدامهم على أعين العرب  
من مسلمين ومسيحيين .

ومنذ وقعت هذه الحرب المشئومة وخرج أهل فلسطين من ديارهم ، وشعراء  
العرب في مختلف بلدانهم يبكون الوطن الضائع ، ويتفجعون عليه ، فهذا زكي  
المحاسني يهتف في دمشق :

ما هزَمنا لكي نموت ونفنى      ونُبكى الحياة إن نحن عشنا  
نحن قومٌ ما نام فينا على الضيِّ      مِ أبى ولا قلى الدهر هُنا  
كفكف الشعرَ عن مرأى فلسط      ينِ فِشعرُ الدماء أبى وأغنى  
غَدُّنا المرتجى كما رمت آتِ      بانتقامِ سيفِ العار عَنَّا

ويرتفع هتاف الشعراء في كل مكان ، فمن ذلك قول عادل الغضبان في  
قصيدة له دعاها : « صوت العرب » :

كفالك يا غَرْبُ طغياناً ومفسدةً      ورَمْيَك الشرقَ بالويلات والحربِ  
هذى فلسطينُ ما زالت مضرجةً      أرجاؤها بدمٍ في الله منسكبِ  
شردتَ أبنائها ظالماً وسقمهمُ      إلى الردى عُصْباً تُلقَى على عُصْبِ  
فلا الأذانُ ولا الناقوس يُسمعا      وحى الهدى في فم الإسلام والصليبِ

ويقول محمد عبد الغنى حسن من قصيدة طويلة :

أرضَ البطولة هذه عبراتى      تهذى إليك وهذه حسرائى  
دهمتك من عُصْب الزمان بطانةً      أفاقةً منهومةً الشهواتِ  
لا تستقرْ على الثرى أحداقهم      إلا على العدوات والغاراتِ  
كانوا على الإسلام منذ قيامه      حرباً وكانوا مبعث النكباتِ

ولغدوى طوقان قصيدة بعنوان « بعد الكارثة » تنضج فيها على الوطن  
السليب ، ومن قولها فيها :

يا وطنى ما لك يُحنى على      روحك معنى الموت معنى القدامِ  
جرحك ما أعق أغواره      كم يتزوى تحت ناب الألمِ  
ستنجلي الغمرة يا موطنى      ويمسح الفجرُ غواشى الظلمِ  
والأملُ الظالمُ مها ذوى      لسوف يُروى بلهيبِ ودمِ

ونحن نأمل معها أن تنكشف هذه الغمة سريعاً عن صدر فلسطين ، وأن تعود  
إلى أبنائها مشرقة البحرين ، لم تزد لها الحنة التى ألت بها وصهرتها صهراً إلا قوة فوق قوة  
وقدسية فوق قدسية . إنه الصباح الذى ينتظره العرب جميعاً ، وإنهم لواصلون إليه  
مهما دجت الدنيا ومهما طال الطريق .

## لفصل الثاني

### التأبين

١

#### معنى التأبين

أصل التأبين الثناء على الشخص حيا أو ميتا ، ثم اقتصر استخدامه على الموتي فقط ، إذ كان من عادة العرب في الجاهلية أن يقفوا على قبر الميت ، فيذكروا مناقبه ، ويعدّدوا فضائله ، ويُسْهِروا محامده . وشاع ذلك عندهم ، ودار بينهم ، وأصبح في سننهم وعاداتهم ، ولو لم يقفوا على القبور كأنهم يريدون أن يحتفظوا بذكرى الميت على مر السنين .

ونحن نجد دأرا على السنة الرجال والنساء ، فهم جميعا لا يكتفون بتصوير شعورهم الحزين ، بل يضيفون إليه إشادة بالميت ومناقبه ، كأنهم لا يكونه فقط من أجل رابطة الدم التي تربطهم به ونزوله وراء أستار وأحجار ، بل هم يكون فيه نموذج المروءة كما يتمثلها أهل البادية ، يكون فيه الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الحار وإغاثة الملهوف والحلم والأنفة والحزم وركوب الصعاب والسباحة والقصاحة والسيادة والشرف وكل ما يزين الرجل في رأيهم من صفات وخلال .

وكأنما كان غرضهم من تأبينهم أن يصوروا تصويرا تاما مدى الخسارة والمصيبة في الفقيد . ونرى هذا واضحا في تأبين النساء لأنحويها حضر ومعاوية ، فهي تندبهما بقلب محترق من جهة ، وهي تؤنّبهما لتصور فضائلهما وتوضح ما خسرتيه فيهما قبيلتهما .

وكان من عقائدهم أن القتل لا يهدأ في قبره ، حتى تصيب القبيلة



من دم قاتليه ، وكانوا يحرمون على أنفسهم الخمر وكل الملذات إلى أن يتركوا وترهم ، ودفعهم ذلك إلى أن يكبروا مصيبتهم في القتل وأن يسبقوا عليه من الخلال والحمد ما يشعل الحرب ويوجب نيرانها فلا تنطفئ أبداً .

وما حياتهم في الجاهلية إلا سلسلة حروب ومعارك طاحنة ، فكانوا لا يدفنون قتيلًا إلا ليستعدوا لدفن أخيه وبكائه وتأبينه والإشادة ببطلته وكرمه ، وما أعطى لقبيلته من ماله وروحه . ولم يؤبنوا أبطالهم وقتلاهم فحسب ، بل أبنوا أيضاً أشرافهم وساداتهم وإن ماتوا حتف أنوفهم ، فخرا بهم واعتزازا . وكانوا يحبرون على القبور ، فن استعاذ بقبر سيد أو شريف حمل أهله متغمرته ، وكثيراً ما ذبحوا على أجدادهم لإبلهم ونخيلهم ، كأنما يريدون أن يرضوا عظامهم ، وأن يعترفوا لهم بوفرة ما ذبحوا للناس من إبل وأنعام . ودائماً نجدهم يستسقون لهم السحاب ، ويستزلون لهم الغيث حتى تُشرع قبورهم وتصبح رياضاً عاطرة .

وكل ذلك احتفال بالميت ومجيد ، وبقيت عليه وعلى ذكراه ، وكان أهم ما يخلده في رأيهم هذه الآيات من الشعر التي بصوغ فيها الشاعر حماسه ومناقبه ، وكأنه يريد أن يحفرها في الأذهان حقراً ، حتى لا تمحى على مر الزمان ، وحتى لا يصيبها شيء من زوال أو نسيان . إنها كل ما يملك ليبقى على الميت بينهم وليجعله دائماً ماثلاً أمامهم .

## ٢

## تأبين الخلفاء والوزراء

هذه الصورة التي ذكرناها للتأبين في الجاهلية ، والتي كانت تعتمد على الخلال والمناقب التي يحترمها العربي القديم ويحلمها في الرجل ، والتي تجمعها كلمة المروعة ، لم تلبث أن دخلت عليها تعديلات مع ظهور الإسلام ورسائله السمحة فإنه عدل في المثل الأعلى عند العرب ، ورفع كثيراً من الخلال ووضع مكانها

خلالا جديدة .

لقد كان العربي في الجاهلية يعد سفك الدماء حسنة كبرى من الحسنات ، فجاء الإسلام محرماً للدماء رافعاً لما كان منها في القديم ، كما رفع كثيراً من الآثار الجاهلية ، وأقام مكانها مآثر جديدة من العدل والتقوى والزهد في الحياة ، وإخلاص الوجه لله . وهذه المثالية الجديدة كان لها شأنها في الرثاء ، فقد أخذت تحل فيه صفات لم يكن العربي الجاهلي يعنى بها ولا كان يفكر فيها . ويتضح ذلك في تأيين الخلفاء ، إذ كانوا أصحاب الدولة الإسلامية والقائمين على نشر تعاليمها ، واحترام سننها في الجزيرة العربية وخارج الجزيرة . فطبيعي أن يفكر الشاعر أول ما يفكر حين يلم برثائهم في الدولة من بعدهم وما سلكوه في حكمهم من عدل ، وما أخذوا به أنفسهم من طاعة الله ورسوله والعمل بدعوته فهم خلفاؤه ، وهم أمناؤه على المسلمين من حولهم وعلى رسالته وما تضيء به النور من مثل صفات نبوية .

وأول خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر الصديق الذي حمل لواء الدعوة الإسلامية من بعده وتناول مصابيحها ، فأضاء بها شرق الجزيرة وغربيتها : بلاد فارس والشام بعد أن لم تقات العرب المبعثر في الجزيرة ، ودفعه دفعا إلى الخارج ، فتراموا كالموج ، لا يحول بينهم وبين ما يريدون حائل ، وكأنما ناولهم بيده الكريمة الكرة الأرضية ليزرعوا في أي مكان شاءوا الدعوة الإسلامية ، ويتجنوا لله ولأنفسهم ثمارها ، وفيه يقول حسان مؤبنا :

إذا تذكرت شجواً من أخى ثقة      فاذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا  
خير البرية أتقاها وأعد لها      بعد النبي وأوقاها بما فعلا  
الثاني اثنين والحمود مشهده      وأول الناس طراً صدق الرسل  
وكان حب رسول الله قد علموا      من البرية لم يعدل به رجلا

وحسان يتحدث في تأيينه لأبي بكر عن فضائله المعروفة عند المسلمين ، إذ يعرض لمنزله من الرسول ، وكيف كان صاحبه في الغار وفي الهجرة من مكة

إلى المدينة ، ويذكر أنه كان أول المصدقين به وبرسالته ، ولذلك دعى الصديق . وكل ذلك ذائع مستفيض عن أبي بكر ، أما تقواه وزهده وصالح سعيه في الدين وإذلاله للدنيا وإعرازه للآخرة ، فكل ذلك مشهور بالوجه الصحيح والشهادة الثابتة ، وأما رفيقه بالمسلمين وعدله بينهم وما شئت من سيرة ذكية نقية طاهرة ، فالأمة الإسلامية مجمعة عليه والدلالة اليقينية قاطعة به . نَحْضِرُ الله وجهه .

وليس هناك ريب في أن تأيين حسان جديد في اللغة العربية ، فهو لم يتحدث حديث الجاهليين عن موتاهم ، وإنما تحدث حديث المسلمين ، تحدثت بسيرة لم تكن تعرفها الجاهلية ، فيها البر والعدل والتقوى والإسلام ، وفيها الخير ومحبة الرسول وإثارة على كل الأصحاب والأنصار . وبهذه الخلال والمناقب الجديدة كانت فاجعة الإسلام والمسلمين فيه .

وتخلفه عمر ، فسار في الناس بسيرته وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من قبله واقتعد من العدل والزهد في الدنيا مكانا تنقطع الرقاب دونه . وما زال يحفظ الدولة بلى ما زال يعد في أطنابها شرقاً وغرباً ، والدنيا تزحف إلى العرب من تحت أقدامه وهم يجوبونها فاتحين مجاهدين في الله ورسوله حق الجهاد ، قد استحبوا الآخرة الباقية وآثروها على الدنيا الفانية ، والعالم القديم يلهمج باسمه ، وجنوده منصوره في كل مكان يسبّحون بآلاء ربهم وما أفاءه على الإسلام . ولم تلبث أن امتدت إليه يد آثمة في الظلام ، فطعنه أبو لؤلؤة المجوسي طعنة مسمومة ، وهو قائم يصلي في المحراب . فبكاه المسلمون وأبنوه تأييناً رائعا ، فمن ذلك قول الشماخ :

جَزَى اللهُ خَيْرًا مِنْ إِمَامٍ وَبَارَكْتَ      يَدُ اللهِ فِي ذَاكَ الْأَدِيمِ الْمَرْقَرِ  
فَنْ يَجْرِي أَوْ يَرْكَبُ جَنَاحِي نَعَامَةٍ      لِيُذْرِكَ مَا قَدَّمْتَ بِالْأَمْسِ يُسَبِّحُ  
قَضَيْتَ أُمُورًا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا      بَوَائِجُ<sup>(١)</sup> فِي أَكْثَامِهَا لَمْ تَقْتَقِ  
أَبَدَ قَتِيلٍ بِالْمَدِينَةِ أَظْلَمَتْ      لَهُ الْأَرْضُ تَهْتَزُّ الْعِضَاءُ<sup>(٢)</sup> بِأَشْوَقِ

(١) بوائج : جمع بائجة وهي الذاهية .

(٢) العضاء : شجر ، وأشواق : جمع ساق .

تظل الحصانُ البكرُ يُنلقِي جَنِينَهَا نثاً<sup>(١)</sup> خَبَرٍ فوقَ المطىِّ معلقٌ

وهو يستهل كلمته بالدعاء لعمر أن يحزبه الله عن الرعية خيرا وأن يبارك أديمه الممزق بسكين أبي لؤلؤة . ثم انتقل يتحدث عن إمارته على المسلمين واستصلاحهم وتفقد مصالحهم ، فقال إن من أراد إن يبلغ ذلك أو يرتقى إلى غايته حتى لو ركب جناحي نعامه فإنه سيفضل حسيرا مسبوqa . وتوجه إليه بالخطاب يقول له إنك قضيت أمورا وأحكمتها بجميل رأيك وتركت وراءها دواهي لا تزال في أكمامها وأغطينها لم تُفَتِّقْ ولم تُكشِفْ . ثم أخذ يتحدث عن فظاعة الحادثة متعجبا أن يورق ويهتر شجرُ العضاء بعد أن نزلت بالمسلمين هذه الفاجعة التي لم تسمعها النساء حتى سقط حملهن استشعاراً لما تطوى من شر مستطير .

وهذه الصورة من الرثاء جديدة جددة واضحة ، فإن الشياخ لم يدع لعمر بأن تنزل السحب بقبوره كما كانوا يدعون في الجاهلية ، بل دعا الله له ، واستمطر رحمته عليه ، ثم تحدث عن سياسته للمسلمين وأمورهم مستعظما للكارثة التي سقطت عليهم كأنها الصاعقة .

وخلف عمرَ عثمانُ ، وكانت في عهده أول فتنة في الإسلام ، إذ ثارت به طائفة من شذاذ العرب ، وما زالوا به حتى قتلوه وهو يتلو القرآن الكريم ، فقال حسان :

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ<sup>(٢)</sup> عُثْوَانَ السُّجُودِ بِهِ يَقَطُّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقَرَّأَنَا

وخلفه على فلم يستطع أن يلم ما تشعث إذ طعنته يد طائشة حالت بينه وبين ما يريد من جمع المسلمين على كلمة سواء ، فذهب إلى ربه راضيا مرضيا ، وفيه يقول أبو الأسود الدؤلي :

أَفَى شَهْرِ الصِّيَامِ لَجَعْتُمُونَا بِخَيْرِ النَّاسِ طُرًّا أَجْمَعِينَا  
قَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَخَيْسَهَا<sup>(٣)</sup> وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا

(١) نثا : شائع ، وتعليق الخبر فوق المطى : كناية عن أنه سارت به الركبان وتقاذفته البلدان .

(٢) أشمط : شائب .

(٣) خيسها : ذلها .

ومن لبس القتال ومن حذأها      ومن قرأ المثاني والمئين<sup>(١)</sup>  
يقيم الدين لا يرتاب فيه      ويقضى بالفرائض مستينا

و واضح أنه يؤبنه بمحامد ومناقب إسلامية خالصة ، فهو خير الناس ديناً  
وهب نفسه لربه يتلو قرآنه مثانيه ومثينه ، ويقوم شريعته على الحدود والفرائض التي  
شرعها الإسلام ، فهو الخليفة التقي الصالح العدل الذي سار على الطريق النير  
لا يحيد ولا يميل ، كأنه قسطاس الدين المستقيم ومعياره السليم .  
ونمضي في الدولة الأموية فنجد مع وفاة كل خليفة مرأى مختلفة ، ولعل أهم  
خليفة وثاه الشعراء عمر بن عبد العزيز ، إذ سار في الناس سيرة عادلة زاهدة ،  
كلها تقوى وخشية من الله ، وإيثار للدار الباقية ، وفيه يقول جرير :

يَنْعَى النُّعْمَةُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَنَا      يَا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ وَاعْتَمَرَ  
حُمِّلَتْ أَمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبَرَتْ لَهُ      وَقَتَّ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عُمَرَا  
فَالشَّمْسُ طَالَعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ      تَبْكِي عَلَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَ

وجرير يذكر له تقواه وعبادته وحججه بيت الله ، ويفضله على كل المسلمين  
في صلاحه وزهده ، ويشفي على اضطلاعه بأمور رعيته ، وإقامته لشريعة ربه ،  
ثم يصور عظم المصيبة فيه ، فيقول إن الشمس طالعة غير كاسفة تبكي عليه  
نجوم الليل والقمر .

ويدور الزمن ، ويذهب الأمويون ويأتي العباسيون ، ويكثر الشعراء ،  
ويكثر الرثاء ، وخاصة إذا كان الخليفة عادلاً ، لا يريد غير ربه بعمله ،  
ولسكن الخاسر في ثالث خلفائهم المهدي يرثيه ويؤبنه :

وَبَاكِئَةً عَلَى الْمَهْدِيِّ عَبْرَى      كَأَنَّهَا وَمَا جُنَّتْ جُنُونَا  
وَقَدْ خَشَتْ مُحَاسِنَهَا وَأَبْدَتْ      غَدَائِرَهَا وَأَظْهَرَتْ الْقُرُونَا<sup>(٢)</sup>

( ١ ) هذا النمل : قدرها وقطعها ، والمئين : آيات القرآن الكريم .

( ٢ ) الغدائر والقرون : غصن الشجر .

لئن بلي الخليفة بعد عشر<sup>(١)</sup> لقد أبقى مساعي ما بلىنا  
سلام الله غدوة كل يوم على المهدي حين ثوى رهينا  
تركنا الدين والدنيا جميعاً بحيث ثوى أمير المؤمنين

وإذا كان الخلفاء العباسيون قد سالت على قبورهم دموع الشعراء فإن  
الخلفاء الفاطميين في مصر قد أهاجهم أيضاً حين وفاتهم ، فنثروا الدموع الغزار  
على أجسادهم ، فمن ذلك قول حنظلي الدولة أبي المناقب عبد الباقي في رثاء  
المستنصر :

وليس ردى المستنصر اليوم كالردى<sup>(٢)</sup> ولا أمره أمر يقاس به أمر  
لقد هاب ملك الموت إتيانه ضحى ففاجأ ليلاً ولم يطلع الفجر  
فأجرى عليه حين مات دموعنا سماء ، فقال الناس لا بل هو القطر  
وقد بكت النساء صخراً وإنه ليكيه من فرط المصاب به الصخر

وهذا ندب وبكاء ، وكان يشيع عند الشيعة كما قدمنا في غير هذا الموضع  
بكاء آل البيت ، فتناول الشعراء قبساً من هذا البكاء ، وكتبوا عليه مراثيهم في  
الفاطميين .

وكلما وُجِدَتْ خلافة وجد معها هذا البكاء وما يُطَوَّى فيه من تأبين ، نجد  
ذلك عند خلفاء بني أمية في الأندلس منذ عبد الرحمن الناصر ، كما نجد عند  
خلفاء المغرب في دوله المختلفة من مؤحدين وغيرهم ، إذ كان ذلك سنة في  
العالم الإسلامي ، لا حين يموت الخلفاء فحسب ، بل حين يموت الأعيان  
والأشراف .

وكان للوزراء نصيبهم وحظهم من الرثاء ، وخاصة حين ينكبهم الخلفاء ،  
ومن بنكاهم الشعراء كثيراً من وزراء الدولة العباسية ابن الزيات وزير المتوكل ،

( ١ ) يشير إلى أنه ولي الخلافة مدة عشر سنوات .

( ٢ ) الردى : الموت .

وفيه يقول الحسن بن وهب :

يكاد القلبُ من جَزَعٍ يطيرُ      إذا ما قيل قد هلك الوزيرُ  
أمير المؤمنين ! هدمت رُكنًا      عليه رحاكمُ كانت تدورُ  
سيكى الملكُ من جَزَعٍ عليه      وتبكي حين تضطرب الأمور

ومن الوزراء الأندلسيين الذين بكاهم الشعراء المنصور بن أبي عامر وزير هشام الملقب بالمعتد، وهو شخصية فذة، وكان له مجلس معروف كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم والأدب، وهو الذى بنى مدينة الزاهرة بالقرب من قرطبة، وله حروب وغزوات كثيرة فى الأسبان الشماليين، وبما قيل فيه وكتب على قبره :

آثارُهُ تُنبِّيك عن أوصافِهِ      حتى كأنك بالعيان تراهُ  
تالله لا يأتى الزمانُ بمثله      أبداً ولا يحى الثغورَ سواهُ

ومن الوزراء المشهورين لآخر عهد بنى أمية هناك حسان بن مالك بن أبي عبدة، وفيه يقول صديقه أبو عامر بن شهيد من مرثية طويلة :

أفى كل عامٍ مصرعٌ لعظيم ؟      أصاب المنايا حادثى وقديمى  
وكيف ابتدأت فى الخطوب إذا دجّت      وقد قدت عينائى ضوء نجوم  
مضى السلفُ الوضّاح إلا بقيةً      كفرةً مسودّ القميص بهيم<sup>(١)</sup>  
أبا عبدٍ إنا غدرناك عند ما      رجسنا وغادرناك خيرَ ذميم  
أنخذل من كنا نرودُ بأرضه      ونكرعُ منه فى إناء علوم<sup>(٢)</sup>  
ويجلى العنى بنا أنوار رأيه      إذا أظمت ظلماء ذات غوم

(١) يقول إنه لم تبق إلا بقية قليلة من السلف الأغر، وهى تشبه فى غلتها القرة فى الفرس الأسود، والبهيم : الخالص السواد.

(٢) نرود : من راد العشب أى طلبه، ونكرع : نشرب.

وعلى نحو ما أكثر شعراء الأندلس من رثاء وزرائهم أكثر المصريين من رثاء من استوزره الفاطميون وغيرهم، ومما قيل في طلائع بن رزيك:

أني أهل ذا النادى عليهم أسأله      فإني لما بي ذاهب اللب ذاهله  
سمعت حديثاً أحسد الصم عنده      ويذهل واعيهِ ويخرس قائله  
وإني أرى فوق الوجوه كآبة      تدلّ على أن الوجوه ثواكله

ورثاء وزرائنا في العصر الحديث يحتل مكاناً بارزاً في شعر حافظ وشوقي ،  
ولالأخير في رثاء مصطفى فهمي أحد رؤساء الوزارة المصرية في خاتمة القرن الماضي  
وفاتحة هذا القرن :

يا أيها الناعي أبا الوزراء      هذا أوان جلائل الأنباء  
حُثّ البريد مشارقاً ومغارباً      واركب جناح البرق في الأرجاء  
واشتبك هذا الناس دمعاً أو دمماً      فاليوم يوم مدامع ودماء  
لم تمنع للأحياء غير ذخيرة      ولت غير بقية الكبراء

ووراء شوقي كثير من الشعراء الذين رثوا وأبّنوا من توفوا من الوزراء ،  
تسغفهم في ذلك الصحف اليومية التي تخرج مع كل صباح ومساء .

### ٣

## تأيين الأشراف والأجواد والقواد

لم يترك شعراؤنا شريفاً على مر العصور دون أن يقفوا بقبره وينثروا مدامعهم  
عليه . وكان مقياس الشرف في الجاهلية التميز في القبيلة بالكرم والشجاعة  
والسيادة ، ومن أقدم المراثي التي نذكرها في هذا الجانب مرثية أوس بن حجر في



فضالة بن ككتلة الأسدي ، وفيها يقول :

أيتها النفسُ أجلى جزعا      إن الذي تحذرين قد وقعا  
 إن الذي جمع السباحة والنَّج      لمة والحزم والقوى جُجعا  
 أودى<sup>(١)</sup> وهل تنفع الإشاحة من      أمرٍ لمن قد يحاول البدعا  
 الألمي الذي يظن لك ال      ظنَّ كأن قدرأي وقد سمعا<sup>(٢)</sup>  
 الخلفُ المتلفُ المرزأ لم      يمتنع بضعفٍ ولم يمت طبعاً<sup>(٣)</sup>

وهو يدور في تأيينه حول المعاني والصفات التي كان يقدرها العرب في الجاهلية ، والتي كانوا يطلبونها في أشرافهم وأصحاب النباهة والسيادة . وما تزال هذه الخلال وما يماثلها دائرة على ألسنة الشعراء في مراثيهم حتى عصرنا الحاضر . ونمضي بعد العصر الجاهلي إلى العصر الإسلامي ، فتلقى الأرض بكنوزها إلى حجور العرب ، وتتكون طبقة كبيرة من الأشراف ، يكون من بينها الولاة وكبار القواد والأجواد ، وهي لا تقف عند حد ، فقد بالغ العرب في طلب المديح وأن تجرى ألسنة الشعراء فيهم بالثناء المعطر ، فكانوا إذا رحلوا عن ديارهم شيعوهم بالعبرات . ومن طريف ما شاع على الألسنة في العصر الإسلامي مطلع قصيدة لابن قيس الرقييات في شريف وقائد من قواد العراق هو طلحة الطلحات ، إذ يقول :

نَصَّرَ اللهُ أَغْظَمًا دَفَنُوهَا      بِسَجِسْتَانَ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ

ولعل الشعراء لم يرحلوا إلى وال في هذا العصر كما رحلوا إلى عبد العزيز بن مروان وإلى أخيه عبد الملك على مصر ، فقد كان كعبة القاصدين ، وملجأ المعوزين والمحتاجين ، وللفرزدق يرثيه :

ظَلُّوا عَلَى قَبْرِهِ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ      وَقَدْ يَقُولُونَ تَارَاتٍ لَنَا الْعَبْرُ<sup>(٤)</sup>

(١) أودى : ملك ، الإشاحة : البدع في طلب الحاجة ، البدع : الأمور الجديدة الغريبة .

(٢) الألمي : الذكي الحديد القلب واللسان ، وقد وصفه بأنه يتظن الأمور فلا يخطئ .

(٣) المرزأ : الذي تعصبيه الرزايا في ماله لكرمه ، والطبع : الثيم النعم .

(٤) العبر : الاعتبار .

يُقْبَلُونَ تَرَابًا فَوْقَ أَعْظَمِهِ      كَمَا يُقْبَلُ فِي الْحَبْوَةِ الْحَبْرُ<sup>(١)</sup>  
 اللَّهُ أَرْضٌ أَجَنَّتْهُ ضَرْبُهَا      وَكَيْفَ يُدْفَنُ فِي الْمَلْحُودَةِ الْقَمَرُ<sup>(٢)</sup>  
 إِنْ الْمَنَابِرُ لَا تَعْتَاضُ عَنْ مَلِكٍ      إِلَيْهِ بِشَخْصٍ فَوْقَ الْمُنْبَرِ الْبَصَرُ

ولما تحولت الخلافة إلى بني العباس كان من بين من قضوا عليهم يزيد  
 ابن عمر بن هبيرة والى العراق لروان بن محمد وقائد جيوشه هناك ، وكان من  
 الشجعان الأجواد ، وفيه يقول أبو عطاء السندی ناديا متفجعا :

أَلَا إِنَّ عَيْنًا لَمْ تَجْدْ يَوْمَ وَاسِطٍ      عَلَيْكَ بِجَارِي دَمْعَهَا الْجَمُودُ<sup>(٣)</sup>  
 عَشِيَّةَ قَامَ النَّائِحَاتُ وَشَقَّتْ      جُيُوبُ بَأْيْدِي مَأْتَمٍ وَخُدُودُ<sup>(٤)</sup>  
 فَإِنْ تُمْسِي مَهْجُورَ الْفَنَاءِ فَرَبَّمَا      أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الْوُفُودِ وَفُودُ<sup>(٥)</sup>

وكان للعصر العباسي أجواده وأشرافه وقواده الذين أجزلوا العطاء للشعراء ،  
 وأجزل الشعراء لهم في المدائح والمراثي . ومن أهم من رثوه وبكوه مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ  
 الشيباني والى المنصور على اليمن وله سير وأقاصيص في المديح تشبه سير حاتم  
 كرم الجاهلية . ولعل أحدا لم يبلغ في رثائه ما بلغه الحسين بن مطير الأسدي ،  
 فله فيه مرثية رائعة يقول في تضاعيفها هذه الأبيات البديعة :

أَلِمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقُولَا لِقَبْرِهِ      سَقَّتْكَ الْغَوَادِي مَرَبَعًا ثُمَّ مَرَبَعًا<sup>(٦)</sup>  
 فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ حُمْرَةٍ      مِنَ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلْسَّاحَةِ مَضْجَعًا<sup>(٧)</sup>

(١) الحَبْوَةُ : الكعبة .

(٢) الضَرْبَةُ : اللحد أو وسطه .

(٣) واسط : البلدة التي قضى فيها على ابن هبيرة ، وهي بين البصرة والكوفة ، والعين الجمود :

البخيلة بالدمع .

(٤) الجُيُوب : أعلى الثياب مما يلي الصدور .

(٥) الفَنَاءُ : ودهة الدار ، والوُفُود : الجماعات ، والبيت كناية عن رياسته السابقة وكرمه .

(٦) الْغَوَادِي : السحاب : والمَرِيع : مطر الربيع .

(٧) خُطَّتْ : سمرت ، والمَضْجَع : موضع الاستطجاع .

ويا قبر مَعْنٍ كيف وارىت جوده      وقد كان منه البرُّ والبحر مُتَرَعَاً<sup>(١)</sup>  
 بلى قد وَسَّعَتْ الجودَ والجودُ مَيَّتْ      ولو كان حَيًّا ضِيقَتْ حتى تَصَدَّعَاً<sup>(٢)</sup>  
 قَتَى عِيشَ في معروفه بعد موته      كما كان بعد السيل مجراه مَرْتَعَاً<sup>(٣)</sup>  
 ومن وجوه العصر العباسي الذين أحدث موتهم جروحاً لا ترقأ في قلوب  
 الشعراء منصور بن زياد، وفيه يقول التَّيْمِيُّ من مرثية طويلة :

عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ فَمِّمْ هَلَاكُهُ      فالناس فيه كلهم مأجورُ  
 والناس مَاتَهم عليه واحدُ      في كل دارٍ رَنَّةٌ وزفيرُ

وكان ابنه محمد على مثاله في الجود والكرم ، وكان يلقب بفتى العسكر ،  
 وللشعراء فيه مراثٍ بديعة ، ومن قول أشجع السلمي يرثيه :

أُنْعَمَى فَتَى الجُودِ إِلَى الجود      ما مثلُ من أُنْعَمَى بموجود<sup>(٤)</sup>  
 أُنْعَمَى فَتَى مَصَّ الثَّرَى بعده      بَقِيَّةُ الماءِ من العود<sup>(٥)</sup>  
 وانثلم المجدُ به نَلْمَةٌ      جانبُها ليس بمسدود<sup>(٦)</sup>  
 اليوم تُنْحَشِي عَثَرَاتِ النَّدَى      وصولَةُ البخلِ على الجودِ<sup>(٧)</sup>

ومن شغلوا الشعراء أحياء وأمواتاً يزيد بن مزَّيد، سيف الرشيد المسلوك على  
 أعدائه ، وقد تغنى الشعراء بمدح طويلاً ، فلما نزل به القدر هبَّوا ناعين باكين

( ١ ) المترع : الممازج .

( ٢ ) تصدع : تتصدع أى تتشقق .

( ٣ ) المرتع : المكان المعشب الذى ترعى فيه الماشية .

( ٤ ) النعمى : الإخبار بالموت .

( ٥ ) يقول إن الأرض يبست وجفت بعد موته فامتصت ما في العود من بقية الماء . وهو كناية

عن إجداب الأرض بعد موته .

( ٦ ) انثلم : انتصدع .

( ٧ ) العثرات : الزلات ، والصولة : الغلبة .

وفيه يقول التيمي :

أحسُّ أنه أودَى يزيدُ      تبَيَّنَ أيها الناعى المُشيدُ<sup>(١)</sup>  
أُتدري من نَعَيْتَ وكيف فاهتُ      به شفتاك وارك الصعيدُ<sup>(٢)</sup>  
أحامي الملك والإسلام أودَى      فما للأرض ويحك لا تَميدُ<sup>(٣)</sup>  
تأمل هل ترى الإسلام مالتُ      دعائمهُ وهل شاب الوليدُ  
أما والله لا تنفكُ عيني      عليه بدمعها أبدا تجودُ

وكل بيت من المراثية يفيض بالدمع والأسى ، وهي من أجود المراثي في الشعر العربي قديماً وحديثاً . ومن الشعراء الذين برزوا في مراثي الولاة والقواد ممن فاضوا على الناس ببحور نوالهم وغمروا بها الأرامل واليتامى شاعر مشهور يدور اسمه على كل لسان ، وهو أبو تمام ، ومن قوله في إحدى مراثيه وهي في خالده بن يزيد بن مزيد :

أشيبانُ لا ذاك الللال بطالع      علينا ولا ذاك النمام بمائدٍ<sup>(٤)</sup>  
ولا جانب الدنيا بسهل ولا الضحى      بطلقٍ ولا ماء الحياة بباردٍ<sup>(٥)</sup>  
فيا وخشة الدنيا وكانت أنيسة      ووُحدة مَنْ فيها بمضرع واحدٍ

وكان من الحوادث الدامية في عصره أن قتل في بعض حروب العباسيين بطل من أشهر أبطالهم ، وهو محمد بن مُحَمِّد الطوسي الذي طالما دوخ الجيوش ، وكان آية في الجود والكرم ، فنوه به الشعراء وأطنبوا في الثناء ، فلما قتل في ساحة الحرب أقاموا له المآتم ، ومن أروع ما قيل فيه مراثية لأبي تمام ، نقرأ

( ١ ) المُشيد : الرفع لسوته .

( ٢ ) الصعيد : الثرى .

( ٣ ) تميد : تتحرك وتهتز .

( ٤ ) شيبان : قبيلة الميت .

( ٥ ) مطلق : مشرق .

فيها هذه الأبيات :

تُوَفِّيْتُ الآمالُ بعدَ مُحَمَّدٍ      وأصبح في شُغْلٍ عن السَّفَرِ السَّفَرُ<sup>(١)</sup>  
 فَتَى كَلِمًا فاضتْ عيونُ قبيلةٍ      دَمًا ضحكتْ عنه الأحاديثُ والذُّكْرُ<sup>(٢)</sup>  
 فَتَى دَهْرُهُ شطرانَ فيما ينوبه      ففي بأسه شَطْرُ وفي جوده شَطْرُ<sup>(٣)</sup>  
 فَتَى مات بين الطَّعْنِ والضربِ ميتةً      تقوم مقام النصر إذ فاته النصرُ  
 وما مات حتى مات مضربُ سيفه      من الضَّربِ واعتلت عليه القنا السُّمُرُ<sup>(٤)</sup>  
 تَرَدَّى ثياب الموت مُحرًّا فما دَجَى      لها الليلُ إلا وهي من سُندُسٍ خُضِرُ<sup>(٥)</sup>

ويكاد الإنسان يظن أنه لم يمت شريف ولا صاحب مآثرة إلا نعاها الشعراء وخلدوا ذكراه ، ودواوينهم تزخر بمراثيهم لا في الشرق وبغداد فحسب ، بل في كل مكان حتى أقصى العالم الإسلامي في الغرب ، ونقصند الأندلس ، فإن شعراءها جكَّسُوا دواوينهم وأشعارهم بسواد الحزن على من سبقوهم إلى دار الخلود . ونستطيع أن ندخل في هذا الباب عندهم مراثيهم في ملوك الطوائف وهم لم يكونوا ملوكاً حقيقيين ، إنما كانوا أمراء وأعياناً في بلدانهم ، واختارتهم هذه البلدان ليديروا أمرها وقد اشتهر ابن باجة فيلسوف الأندلس وإمامها في الألحان بمراث بكى بها أبا بكر بن تيفسكرويت صاحب سرقسطة ، وقد غنى بها في ألحان مبكية ، من ذلك قوله :

سلامٌ وإِلَامٌ وروحٌ ورحمةٌ      على الجسدِ النَّائِي الذي لا أزورهُ  
 أحقُّ أبا بكرٍ تقضى فما يُرى      تردُّ جواهرَ الوفودِ سُورُهُ

( ١ ) السفر : المسافرون .

( ٢ ) يريد الشاعر بالقبائل التي تفيض عيونها دما القبائل التي هزمتها في الحرب .

( ٣ ) الهأس : الشجاعة .

( ٤ ) مضرب السيف : حده ، واعتلت : اعتذرت وتناقلت ، والقنا : الرياح وتنتع بالسمة

كما تنتع السيوف بالبياض .

( ٥ ) تردى : لبس ، ودجى الليل : أظلم ، والسندس : الحرير .

لئن أنسيت تلك القبور بقبري لقد أوحشت أمصاره وقصوره  
وقوله :

يا صدي بالثغر جاوره ريمم بوركن من ريمم<sup>(١)</sup>  
صبيحك الخيل غازية فاثارتك فلم تريم<sup>(٢)</sup>  
قد طوى ذا الدهر برته عنك فالبس برزة الكرم<sup>(٣)</sup>

وإذا كان أبو تمام وغيره من الشعراء بكوا قواد العباسيين الذين استشهدوا في الحروب فإن الأندلسيين كانوا في حرب مستمرة مع الأسبان الشماليين ، وكم من سيد شريف وجواد كريم ضحى بنفسه في هذه الحرب وجاد بها راضيا يطلب ما عند الله من الثواب والأجر . وتغنى الأندلسيون بأبطالهم كما تغنى العباسيون بشجعانهم ، وتمثل في أذهاننا توا حروب الصليبيين في الشرق ، ومن ماتوا في تلك الحروب فداء أوطانهم ، ومن دوتخوهم مدافعين عن حوزة الإسلام . ولعل الشرق لم يعرف أميرين عظيمين في هذه المعارك كما عرف نور الدين في الشام وصلاح الدين في مصر ولما توفي أولهما نعاها الشعراء لحسن سيرته ولما قدم من بطولة سارت بها الركبان ، وفيه يقول العماد الأصفهاني :

يا ملكا أيامه لم تزل لفضله فاضلة فاخره  
غاضت بحار الجود مذغيبت أنملك الفائضة الزاخره  
ملكته دنياك وخلقتها وسرت حق تملك الآخره

وتحل العباء من بعده صلاح الدين الأيوبي صاحب مصر ومؤسس الدولة الأيوبية بها ، وأكبر من خضعت شوكة الصليبيين ، بل لقد رمى بأمواجهم إلى

( ١ ) الصدى : جسد الشخص بعد موته .  
( ٢ ) لم تريم : لم تبرح مكانك من رمت المكان أى أقمت به .  
( ٣ ) البرزة : الثوب

البحر مستخلصا منهم بيت المقدس وغيره من بلدان الشام ، ولما نزل به قضاء ربه  
رثاه العماد بقصيدة طويلة بلغت مائتين واثنين وثلاثين بيتا وفيها يقول :

ملكٌ عن الإسلام كان محامياً      أبداً إذا ما أسلمته مُحامتهُ  
قد أظلمتْ مذ غاب عنها دُورهُ      لما خلتْ من بدره داراته<sup>(١)</sup>  
لو كان في عصر النبي لأُنزلتْ      في ذكره من ذكره آياته  
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً      رضوانُ ربِّ العرش بل صلواته

وعلى هذه الشاكلة كان شعراؤنا لا يتركون شريفا ولا عظيما يموت وتذهب  
ذكراه ، بل سجلوا دائما مناقب كل سيد نبيل ، وكل بطل جريء . وما دواوين  
شعرائنا إلا سجلات حافلة بمن لمعوا في عصورهم ، ثم اختفوا وراء ظلمات الموت .  
ونمضي بعد صلاح الدين في ديارنا المصرية ، ويدور بنا الزمن دورات ،  
حتى نصل إلى العصر الحديث بين أنات الشعراء وصياحهم على من يتوفون من  
سلاطين الممالك وعلية القوم ورؤسائهم وأجوادهم . وما نزال حتى نلتقي بحافظ  
وشوقي فنجد لمرأى السراة والأعيان مكانا بارزا في ديوانيهما ، ولعل حافظا يتقدم  
شوقي في هذا الجانب ، إذ دفعته رقة خاله للاتصال بطائفة من العلية الممتازين  
في عصره ، وأغدقوا عليه من بركاتهم وفضلهم فكان إذا نزل الموت بساحة واحد منهم  
ذهب ينشج عليه وينوح بعاطفة حزينة صادقة ، من ذلك قوله في سليمان أباطة :

أودى سليمانُ فأودى بعده      حُسْنُ الوفاء وبهجةُ العلّيا  
لا تحملوه على الرقاب فقد كفى      ما مُحِلتْ من منّةٍ وعطاء  
وذروا على نهر اللدائع نعشه      يَسْرِي به للروضِ الفَيْحاء  
تالله لو علمتْ به أعواده      مذ لامسته لأورقتْ للرأي  
خلقٌ كضوء البدر أو كالروض أو      كالزهر أو كالنخل أو كالماء

ولشوقي هو الآخر مرث في سراة عصره ، وكانت له مقدرة بديعة في تلوين  
الرثاء بالحكم وسنعرض لذلك في حديثنا عن العزاء .

(١) الدارات : جمع دارة وهي الهالة الدائرة حول القمر .

## تأبين العلماء والأدباء

طبيعى أن يكون للعلماء مكانهم فى التأبين والثناء ، إذ كانوا يتصلون بحياة الشعراء اتصالاً مباشراً إما من الوجهة الثقافية العامة ، وإما من الوجهة الدينية ، وقلما مات صاحب مذهب فى الدين أو صاحب أثر بارز فى تأليف الشريعة إلا نعاه الشعراء وتحدثوا عن فضله وواسع علمه وقيمة ما ترك من ورائه . ومن بكاه الشعراء الأوزاعى فقيه الشام ، وإمام أهله لعصر بنى أمية ، وفيه يقول بعض الشاميين :

جاد الحَيَا<sup>(١)</sup> بالشام كلَّ عَشِيَةٍ      قبرا تَضَعْنَ لَحْدُهُ الأوزاعى  
قَبْرُهُ تَضَعْنَ فِيهِ طُودَ شَرِيعَةٍ      سَقِيَا لَهُ مِنْ عَالَمِ نَفَاعِ  
عَرَضَتْ لَهُ الدُّنْيَا فَأَعْرَضَ مَقْلَعًا      عَنْهَا بَزْهَدٍ أَيْمًا إِقْلَاعِ

وغير الأوزاعى من الفقهاء الأول كان يبكيه الشعراء ، ويؤينونه معبرين عن إعجابهم به وبسلوكه العلمى والخلقى ، ول بعضهم فى الإمام مالك وكتابه «الموطأ» :

إِمَامٌ مُوَطَّاهُ الَّذِى طُبِّقَتْ بِهِ      أَقَالِيمُ فِي الدُّنْيَا فَسَاحٌ وَأَفَاقُ  
لَهُ سَنَدٌ عَالٍ صَحِيحٌ وَهَيْبَةٌ      فَلِلْكَ كُلِّ مِنْهُ حِينَ يَرُويهِ إِطْرَاقُ

وهو يشير إلى ما فى كتاب الموطأ من أحاديث صحيحة عالية السند ، موثوق بها ، إذ كان مالك ديننا ورعاً ، متحرّجاً فما يرويه من أحاديث ، فلم يَرَوْهُ إِلَّا الصحيح . ويقول آخر فى الشافعى ( وهو أبو عبد الله محمد بن إدريس ) :

(١) الحيا : الغيث .



ألم تر آثار ابن إدريس بعده دلائلها في المشكلات لوامع  
إذا المعضلات المشكلات تشابهت سما منه نور في دجَاهن لامع  
تسرَّيل بالتقوى وليدا وناشئا وخُصَّ بلبِّ الكَهْل مَذْهُو يافع

ويطول بنا القول لو ذهبنا نحصى ما قيل في الفقهاء وعلماء الشريعة الإسلامية على مر العصور ، فقد كانوا أساتذة المسلمين الروحيين ، وكانوا يتلقون عنهم من الهدى في دينهم ما يضفي لهم جوانب حياتهم ، فلا غرو أن وقفوا عليهم كثيرا من مراثيهم .

ولعل علماء اللغة هم أكثر العلماء اتصالا بالشعر والشعراء ، فقد كانوا يؤدبونهم ، وعن طريقهم حذقوا فقههم وقد ذهبوا ينعونهم في شعرهم ، ونجد هذا النعي في كل مكان . ومن أكثر الشعراء نعيه منهم عبد الملك بن سراج نحى علم اللسان بجزيرة الأندلس ، فقد عقد ابن بسام في كتابه النخيرة فصلا طويلا لمراثيه ، وبما قيل فيه :

كم مُصَغَّبٍ في النحو راضٍ بِجَاحِهِ حتى غَدَا والصعبُ منه ذَلُولُ  
أَدْنَى إلى الأفهام نائِي عَلِمَها حتى تساوى عالمٌ وجهول  
طَبٌّ بأدواء الكلام ملقَّنٌ سَهْمٌ على عَوْرَانِهِ مَدْلُولُ<sup>(١)</sup>

ومن مراثي اللغويين والنحويين البديعة مراثية الشرف الحصني لابن مالك صاحب « الألفية » المشهورة ، وفيها يقول :

يا شتاتَ الأسماء والأفعال بعد موتِ ابن مالكِ المفضالِ  
وانحرافَ الحروف من بعد ضَبْطِ منه في الانفصال والاتصالِ  
مصدراً كان للعلوم بأذُن الـ له من غير شبهةٍ ومُحَالِ  
عَدِمَ النحوُ والتعطفُ والتو كيدُ مستبدلا من الأبدالِ

أدغموه في الترتب من غير مثلٍ سالماً من تغيُّر الانتقال.

وواضح أن الحصنى تصنع لمصطلحات النحو ، فحشدها في مراثيته ، حتى يلائم بين الشعر وصنعة ابن مالك وقد وفق في هذا التصنع ، فلم تسقط الأبيات ولا الأفكار منه ، واستمر طويلاً على هذا النحو الطريف .

ومن بين العلماء الذين أبتهن الشعراء العلماء بالفلسفة ، وقد وجدوا فيهم مادة لا تنفد من أحوال الدنيا ، وخاصة أن أكثرهم كان يتعاطى الطب ، ويداوى الناس من الأمراض ، ولم يستطع أن يداوى نفسه ولا أن يمنع عنها نزول الموت ، فذكروا فضلهم وعلمهم ، ثم وقفوا عند صنعتهم وأنها لم تغنهم من أمرهم شيئاً فمن ذلك قول يحيى المنجم في رثاء ثابت بن قرّة :

كُنِينَا الْعُلُومَ الْفَلَسَفِيَّاتِ كُلَّهَا      خَبَا نَوْرُهَا إِذْ قِيلَ قَدْ مَاتَ ثَابِتُ  
وَأَصْبَحَ أَهْلُهَا حَيَارَى لِفَقْدِهِ      وَزَالَ بِهِ رُكْنٌ مِنَ الْعِلْمِ ثَابِتُ  
وَلَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ لَمْ يُغْنِ طِبُّهُ      وَلَا نَاطِقٌ مِمَّا حَوَاهُ وَصَامَتُ<sup>(١)</sup>

ويقول آخر في ابن سينا :

رَأَيْتُ ابْنَ سِينَا يَدَاوِي الرِّجَالَ      وَبِالْحَبْسِ مَاتَ أَخَسُّ الْمَمَاتِ  
فَلَمْ يَشْفِ مَا نَالَهُ بِالشِّفَا      وَلَمْ يَنْجُ مِنْ مَوْتِهِ بِالنَّجَاةِ

والشاعر يريد بالحبس انحباس بطنه من قرحة المعدة التي مات بها ، والشفاء والنجاة كتابان معروفان لابن سينا .

وإذا كان أسلافنا قدروا معاصريهم من العلماء في مختلف الفروع والفنون فإن شعراءنا أيضاً وفوا علماءنا حقهم من التكريم والتبجيل بعد وفاتهم ، فقلما توفي عالم نابه إلا أشادوا به ، وتحدثوا عن مناقبه ، وما أسدى لوطنه وأبنائه ، وما قدم لأمته من خدمات ، واستمع إلى شوقي يقول في أبي هنيئ أحد رجال القانون :

( ١ ) المال الناطق : اللوالب ، والصامت : العقار والضياع والذهب والفضة .

اجعلْ رثاءك للرجال جَزَاءً      وابعثه للوطن الحزين عزاء  
 إن الديار تريق ماء شُثُونِها      كالأمهات وتندب الأبناء<sup>(١)</sup>  
 تُكَلُّ الرجال من البنين وإنما      تُكَلُّ المالك قَدُّها العلماء  
 يَجْزَعَنَّ للعلم الكبير إذا هَوَى      جَزَعَ الكتاب قد قَدَّزَنَ لواء<sup>(٢)</sup>  
 عِلْمُ الشريعة أدركته شريعة      للموت ينظم حُكْمُها الأحياء  
 طامى قضاء الأرض عِلْمَ محضٍ      واليوم عاج للسماء قضاء

فهو يشيعه لا يحزنه وحده ، بل أيضاً يحزن وطنه عليه ، ومصيبته فيه ،  
 وخسارة أصدقائه ومواطنيه . ومن بين من رثاهم عثمان غالب ، وكان عالماً بالنبات  
 وطبياً ، قرئ العلمين فيه ، وهو يستهل مراثيه بقوله :

ضجَّتْ لمصرَعِ غالبٍ      في الأرض مملكة النبات  
 في مأتمٍ تلقى الطيب      مئةً فيه بين النائمات  
 والزهرُ في أكامِهِ      يبكي بدمع القاديات<sup>(٣)</sup>  
 أما مصابِ الطبِّ فيهِ      فـ قَسَلٌ به مَلَأُ الأَساءة<sup>(٤)</sup>

وكان شوقي يعرف كيف يستخرج في مراثيه المعاني من الموضوع الذي  
 ينظم فيه ، وقد أطلال في بكاء الطبيعة وأزهارها على غالب ، ولم ' قطفنا هذه  
 الأبيات الأربعة من أبيات كثيرة . وله في رثاء طبيب :

جَمَعَتْ جراحُ المُعْزِزِ وأعضَلَتْ      أدواؤهم . وتغيَّبَ الشافونا<sup>(٥)</sup>

( ١ ) ماء الشثون : الدموع .

( ٢ ) العلم : المشهور ، وأصله الجبل .

( ٣ ) القاديات : السحب .

( ٤ ) المَلَأُ : شيوخ الناصي ، والأَساءة : الأطباء .

( ٥ ) أعضلت : استعصمت .

مات الجواد بطبّه وبأجره ولربما بذل الدواء مُعيناً  
وتَجَسُّ راحته العليل وتارة تكسو الفقير وتطعم المسكيناً

وللمعلمين حظهم في مراثينا الحديثة ، وخاصة عند شعراء لبنان والمهجر ،  
ولنسب عريضة مرثية بديعة يؤبّن فيها عبد الله البستاني مشنبا على أخلاقه وصفاته  
وتكده في سبيل رقي بلاده ونهضتها العلمية ، وما جاء فيها :

إنه عالمٌ — تقول — قضى الأيّامَ ما بين طُرْسِدِ ودواته  
كان يقرى الجياعَ علماً وفهماً وسواه يقرّيهُم من فتاته  
هذب الناشئين في أُمّة ما عرفت حقّ قدره في حياته  
فلتقدّس ذكراه في القلب فالذكر رعى بقلب الحزين من صلواته

ولعل مصر والبلاد العربية لم تبتك عالماً في عصرنا كما بكت الشيخ محمد  
عبد مفتح الديار المصرية إذ كان مصلحاً كبيراً ، وكانت له معارك مع رجال  
الدين المتزمتين ، كما كانت له معارك وطنية وسياسية ، وكان في كل ما يتجه  
إليه يفكر في بلاده وفي دينه وفي الأزهر والنهوض به . وتصادف أن رعى حافظ  
إبراهيم وأن كان سبياً في جَدب الأنظار إليه ، فلما توفى ردّ إليه صنيعه مراثي  
ملتاعة ، وله في إحدى مراثيه :

سلامٌ على الإسلام بعد محمدٍ سلامٌ على أيامه النَّصْرَاتِ  
على الدين والدنيا ، على العلم والحجّي على البرِّ والتقوى ، على الحسَنَاتِ

واستمر يتحدث عن إصلاحاته ، وذبه عن الإسلام ورده على مطاعن  
أعدائه ، وما سطر في التفسير من آراء وأحكام ، حتى قال :

بكى الشرقُ فارتجّت له الأرضُ رَجَّةً وضافتُ عيون الكَوْنِ بالعبراتِ  
قفي الهندِ محزونٌ وفي الصينِ جازعٌ وفي مصرَ بالكِ دائمُ الحسراتِ

وفي الشام منجوع وفي القرم نادب وفي تونس ما شئت من زفرات  
بكي عالم الإسلام عالم عصره سراج الدياجي هادم الشبهات

وهي مرثية مليئة باللوعة الشديدة ، إذ كان يبكي فيه ناصره ، كما كان يبكي  
فيه أهدافه الإصلاحية الكثيرة للهوض بوطنه .

وإذا كان العلماء قد استأثروا بكثير من مرثي شعرائنا في القديم والحديث  
فإن الأدباء استأثروا من ذلك بالخط الأوفر ، سواء أكانوا كتابا أم كانوا شعراء .  
والشريف الرضي مرثيتان مشهورتان في أكبر كاتبين في عصره ، وهما أبو إسحاق  
الصائغ شيخ الكتاب في بغداد والصاحب بن عباد وزير البويهيين وخير كتابهم ،  
ومن قول الشريف في أولهما :

أعلت من حملوا على الأغوار أرايت كيف خبا ضياه النادى ؟  
جبيل هوى لو خر في البحر اغتدى من وقعه متابع الإزباد  
ما كنت أعلم قبل دفنك في الترى أن الثرى يعمل على الأطواد

ويقول في الصاحب من مرثية طويلة :

أكذا المنون يقطر<sup>(١)</sup> الأبطالا أكذا الزمان يضعضع الأجيالا  
جبيل تسنت البلاد هضابه حتى إذا ملأ الأقاليم زالا  
يا طالبا من ذا الزمان شبيهه هيهات كلقت الزمان محالا

وكثير هم الكتاب الذين دبح الشعراء فيهم مرثى بديعة ، ففي الشرق والغرب  
وفي كل مكان نجد الشعراء يذكرونهم . ومن طريف ما جاء عن الأندلسيين من  
ذلك رثاء ابن برّد الأصغر لأبي عامر بن شهيد صاحب رسالة التوايح والزوايح ،  
وهي رحلة فيما وراء الطبيعة لشاعر جاس خلال وادي الحنين ، والتي فيه بشياطين  
الشعراء ، وحاورهم وحدهم كما حدثوه . ومن قول ابن برّد فيه :

لَا يَزِيدُ خِصْلَةً تَبْكِيكَ حِينِي وَمَالِي بِالْحَسَابِ لَهَا يَدَانِ  
 أَلَيْسَ الْمَنُوطَةُ بِالثَرِيَّا أَمْ الشِّمُّ الْمَهْدِيَةُ الْحَسَانِ  
 أَمْ الْقَلَمُ الَّذِي قَدْ كَانَ يَمُجِّنِي مِنَ الْقِرْطَاسِ نُورًا الْبَيَانِ

ولكتاب العرب المحدثين نصيبهم من هذه المراثي ، وخاصة من اشتغلوا منهم  
 بالصحافة ، وساهموا في حياتنا الأدبية ، ويكفي أن نرجع إلى ديواني حافظ وشوقي ،  
 فسنجد عندهما مراثي لكثيرين من الكتاب المعاصرين أمثال جورجى زيدان  
 والشيوخ على يوسف صاحب المؤيد ويعقوب صروف أحد صاحبي مجلة المقتطف  
 وصحيفة المقطم ، ومحمد المويلحي الذى كان يجرى مع أبيه إبراهيم صحيفة مصباح  
 الشرق ، والذى ألف حديث عيسى بن هشام وصور فيه حياتنا المصرية فى  
 أواخر القرن الماضى ناقدا ما اقتبسناه من أوروبا من عادات وأخلاق ، ومجريا ذلك  
 فى شكل قصصى يعتمد على الحوار ورسم الشخصيات ، وإلى هذا الكتاب يشير  
 حافظ فى تأبينه له إذ يقول :

لو شهدتم ( محمداً ) وهو يُملى آى ( عيسى ) ومعجزات الكتاب<sup>(١)</sup>  
 وقفت حوله صفوفُ اللعانِ و صفوفُ الألفاظ من كل بابٍ  
 لعلمتم بأن عهدَ ابنِ بَحرٍ عاود الشرقَ بعد طول احتجابٍ<sup>(٢)</sup>

ويقول شوقي :

فى يد النَّشءِ من بيان المويلحي مثلُ ينفع الشبابِ اتباعه  
 صورٌ من حقيقةٍ وخيالٍ هى إحسانُ فكره وابتداعه

ولإذا تركنا الكتاب إلى الشعراء وجدناهم يحزنون على زملائهم الذين يسبقونهم  
 إلى الموت حزنا يقضى بهم إلى التنفيس عن لوعتهم بالأبيات والمقطوعات أحيانا

( ١ ) ورى حافظ فى كلمتى محمد وعيسى ، وهو يقصد محمد المويلحي وكتابه عيسى بن هشام .

( ٢ ) ابن بحر هو عمرو بن بحر الجاحظ أشهر كتاب العصر العباسى .

وبالقصاصد والمرأى المطولة أحياناً أخرى . وهذا التعاطف والتراحم بينهم من قديم ، وحتى بين من كانوا يتهاجون فإن الفرزدق كان يتعارك مع جرير ، ولهما نقائض مشهورة ، ولما ألمّ بالفرزدق طائف المتنون بكاه جرير في أشعار مختلفة ، منها قوله :

فَجِئْنَا بِحِمَالِ الدِّيَاتِ ابْنَ غَالِبٍ      وَحَامِي تَمِيمٍ عَرَضِيهَا وَالْمُرَاجِمِ<sup>(١)</sup>  
بَكَيْنَاكَ حَدَّثَانِ الْفِرَاقَ وَإِنَّمَا      بَكَيْنَاكَ شَجَوْنَا لِلْأُمُورِ الْعِظَامِ

ومن يرجع إلى كتب الأدب والتراجم في العصر العباسي يجد الشعراء مكبّين على تأبين زملائهم الراحلين ، وهذا طبيعي بحكم الزمالة وما نشأ بينهم من صفة وصداقة ، وهي صداقة روحية ، وكثيراً ما تكون صداقة تلمذة ، فتجتمع الأبوة الفنية مع الصداقة الروحية ، أو تكون الأخوة الأدبية التي تربط الشعراء برابط أقوى من رباط الدم . ومن بكاهم لإخوانهم وأعولوا في بكائهم أبو تمام ، وفيه يقول الحسن بن وهب :

فَجِيعَ الْقَرِيضُ بِخَاتَمِ الشُّعْرَاءِ      وَغَدِيرُ رَوْضَتِهِ حَبِيبِ الطَّائِي  
مَاذَا مَعَا فَتَجَاوَرَا فِي حُفْرَةٍ      وَكَذَاكَ كَانَا قَبْلُ فِي الْأَحْيَاءِ

ويقول علي بن الجهم :

غَاضَتْ بِدَائِعِ فِطْنَةِ الْأَوْهَامِ      وَعَدَتْ عَلَيْهَا نَكْبَةُ الْأَيَّامِ  
وَعَدَا الْقَرِيضُ ضَنْبِيلَ شَخْصٍ بِأَكْيَا      يَشْكُو رَزِيئَتَهُ إِلَى الْأَقْلَامِ  
وَتَأَوَّهَتْ غُرَرُ الْقَوَافِي بَعْدَهُ      وَرَمَى الزَّمَانُ صَحِيحَهَا بِسَقَامِ  
أَوْدَى مَثْقَفُهَا وَرَائِضُ صَعْبِهَا      وَغَدِيرُ رَوْضَتِهَا أَبُو تَمَامِ  
ولما قتل المتنبي أقام الشعراء عليه المآتم في كل مكان ، ومن رثاه فأحسن في

(١) حال الديات : الذي يحمل عن الناس ما يطلب منهم من الديات والمغارم ، والمراجع : المناضل والمدافع .

رثائه على إيجازه أبو القاسم مظفر بن علي الطَّبَّسِي ، إذ يقول :

لَا رَعَى اللَّهُ سِرْبَ هَذَا الزَّمَانِ إِذْ دَهَانَا فِي مِثْلِ ذَلِكَ اللِّسَانِ  
مَا رَأَى النَّاسُ ثَانِيَ التَّنَجِّيِ أَيُّ ثَانٍ يُرَى لِيَكْرِ الزَّمَانِ  
كَانَ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ فِي جَيْشٍ وَفِي كِبَرِيَاءِ ذِي سُلْطَانِ  
هُوَ فِي شَعْرِهِ نَبِيٌّ وَلَكِنْ ظَهَرَتْ مَعْجَزَاتُهُ فِي الْمَعَانِي

وكان أبو العلاء كثير التلاميذ، فلما مات أنشد على قبره أربعة وثمانون شاعراً مرأى يبيّنه فيها ، ويبيّن الشعر والعلم والثقافة الواسعة ، وفيه يقول على بن الهمام من مرثية طويلة :

إِنْ كُنْتَ لَمْ تُرَقِّ الدَّمَاءَ زَهَادَةً فَلَقَدْ أَرَقْتَ الْيَوْمَ مِنْ جَفْنِي دِمَا  
سَيَّرْتَ ذِكْرًا فِي الْبِلَادِ كَأَنَّهُ مِثْكَ مَسَامَعَهَا يَضْخَعُ أَوْفَمَا  
وَتَرَى الْحَجِيجَ إِذَا مَا أَرَادُوا لَيْلَةً ذَكَرَكَ أَخْرَجَ فِدِيَةً مِنْ أُخْرَمَا

وهو يشير في البيت الأول إلى تحريمه على نفسه الحيوان ، وأنه لم يرق دمه ليأكله ، ويقول في البيت الأخير إن ذكره طيب ، والطيب لا يحل للمحرم الحاج ، فإذا ذكره وجب عليه أن يؤدي الفدية .

وإذا كان شعراؤنا في العصور الماضية قد أدى بعضهم لبعض حقوقهم من التأبين والبكاء فإنهم في عصرنا الحديث يستبقون إلى هذا الواجب الأدبي استباقا ، فكل منهم يظهر وفاءه بزميله وأن كارثته فيه فوق أن تُحَدَّ أو توصف ، بل إنها كارثة الشعر والفن ، وأيضاً فإنها كارثة الوطن الذي أُصِيبَ به وخرّج يشيعه كسير القلب والفؤاد . ولعل أهم شاعر لبست له مصر ثياب السواد في مفتتح قرننا هو البارودي أبو شعرا الحديث ، الذي نفخ في روحه وبعثه من موته ورقاده ، وفيه يقول حافظ إبراهيم ناديا مشيدا بأعجاده الفنية :

لَبَّيْكَ يَا شَاعِرًا ضَنَّ الزَّمَانُ بِهِ عَلَى النَّحْيِ وَالْقَوَانِي وَالْأَنَاشِيدِ<sup>(١)</sup>



تَجْرَى السَّلاَسَةُ فِي أَثْنَاءِ مَنْطَقِهِ      تَحْتَ الْفَصَاحَةِ جَرَى الْمَاءُ فِي الْعُودِ  
لَوْ حَنَطُوكَ بِشَعْرِ أَنْتَ قَائِلُهُ      غَنَيْتَ عَنْ تَفَاتِحِ الْمِسْكِ وَالْعُودِ

ثم يتحدث عن قصائده في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنها خير زاد له يوم الحساب ، ثم يعرض لمناصبه في الثورة العرابية وقبلها ، كما يعرض لحروبه في جيوش الترك ، ويقول :

لَوْ أَنْصَفُوا أَوْدَعُوهُ جَوْفَ لَوْلُؤَةٍ      مِنْ كَنْزِ حِكْمَتِهِ لَا جَوْفَ أَخْذُودٍ<sup>(١)</sup>  
وَكَفَّنُوهُ بِدَرْجٍ مِنْ صَحَائِفِ      أَوْ وَاضِحٍ مِنْ قَيْصِ الصَّبْحِ مَقْدُودٍ<sup>(٢)</sup>

وما يزال حافظ يشيد بشعره وفرائده الحسان التي بلغت من الجمال الفنى أروع مظاهره . وكما بكى حافظ البارودى وأبنته بكى إسماعيل صبرى هو الآخر وأبنته تأبيناً طريفاً ، وفيه يقول :

أَوَّلَ يَوْمٍ لَعَدَ الرَّبِيعَ      تَجِفُّ الرِّيَاضُ وَيَذْوِي الزَّهْرُ<sup>(٣)</sup>  
وَيَذْبُلُ زَهْرُ الْقَرِيضِ الثَّرِيِّ      وَيُقْفِرُ رَوْضُ الْقَوَافِي الْفَرَزِ  
لِيَهْدَأَ عَمَانُ فُغْوَاصِهِ      أُصِيبَ وَأَمْسَى رَهْنِ الْحَقَرِ<sup>(٤)</sup>  
يَقُولُ فَيُرْخِصُ دُرَّ النُّجُورِ      وَيُعْلِي جُحَانَ بَنَاتِ الْفِكَرِ<sup>(٥)</sup>

واستطرد يتحدث عن خصائصه في شعره ، وأنه كان يعنى بتأليف المقطوعات القصيرة لكنها على قِصَرِها لها جمالها وحسنها ، ولها إعجازها وإبداعها ، بما أدَّت من قفشات الهوى وتعاويد الحب والحوى . وأبنته شوقى بمرثية طويلة ،

- 
- ( ١ ) الأخدود : الحفرة في الأرض ، والمراد بها القبر .  
( ٢ ) الدرج : ما يكتب فيه ، والمقدود : المشقوق .  
( ٣ ) يشير إل أن إسماعيل صبرى ترقى مع أول الربيع .  
( ٤ ) عمان : في الجنوب الشرقى للجزيرة العربية على خليج العرب ، وتشتهر بالتؤلؤ المستخرج من مياهها .  
( ٥ ) الجمان : التؤلؤ .

ذكر فيها تلمذته له ورعايته الأدبية ، إذ يقول في وصف قصيدته :

هذا هو الريحان إلا أنه      نَفَحَاتُ تلك الروضة المثناف<sup>(١)</sup>  
والدرُّ إلا أن مَهْدَ يَتِيمِهِ      بالأمس لُجَّةٌ بِمَحْرِكِ القَذَافِ  
أيامَ أَمْرَحُ في غبارك ناشئاً      تَهْجِجُ المِهَارِ على غبار «خِصَافِ»<sup>(٢)</sup>  
أَتَعْلَمُ الغايات كيف تُرَامُ في      مضمار فَضْلٍ أو مجال قواف

وواضح أن شوقي، يذكر له فضله عليه في الشعر وفي التخلق بالأخلاق  
الكريمة . ولا سبقه حافظ إلى الدار الباقية بكاه بمرثية رائعة افتتحها بقوله :

قد كنتُ أُوثرُ أن تقولَ رثائي      يا منصفَ الموتى من الأحياء

وما زال يتحدث عن حياته ووفائه لأصدقائه ، وشعره وما خسرت الفصحى  
بموته ، وكيف نعته البلاد العربية وبكته ، حتى قال :

يا حافظ الفصحى وحارسَ مجديها      وإمامٌ من نَجَلَتْ من البلغاء<sup>(٣)</sup>  
جَدَّدْتَ أسلوبَ (الوليد) ولفظه      وأتيتَ للدنيا بسحر (الطائي)<sup>(٤)</sup>

ولم يلبث نجم شوقي أن أفل بعد حافظ بقليل فنعته البلاد الناطقة بالضياء  
كلها ، ولم تبق بلدة إلا نشجت عليه وبكت ، ولم يبق شاعر من شعرائها إلا  
استوحى موته مرثية باكية يشيع بها إلى مثواه الأخير . ومن رائع ما رثى به قصيدة  
بشارة الخورى ، وفيها يقول :

قِفْ في رُبِّي الخلدِ واهتفِ باسمِ شاعره      فسيذرة المُنْتَهَى أدنى منابره

(١) الروضة المثناف : الروضة التي قلما يمر بها أحد .

(٢) المهار : جمع مهرة ، وخصاف : فرس مشهور عند العرب ، والتشبيه واضح .

(٣) نجلت : ولدت .

(٤) الوليد : البحتري ، والطائي : أبو تمام .

وَأَمْسَحْ جَبِينِكَ بِالرُّكْنِ الَّذِي انْبَلَجَتْ أَشْعَةُ الْوَحْيِ شِعْراً مِنْ مَنَازِلِهِ  
إِلَهَةُ الشَّعْرِ قَامَتْ عَنْ مِيَامِنِهِ وَرَبَّةُ الْفَرْ قَامَتْ عَنْ مِيَامِنِهِ  
وَالْحُورُ قَصَّتْ شَذُوراً مِنْ غَدَائِرِهَا وَأَرْسَلَتْهَا بِدِيلَا مِنْ سَتَائِرِهِ

ومن الأدباء الذين نعاهم الشعراء في عصرنا جُسران شاعر المهجر وكاتبه الفذ ،  
وزملائه من الشعراء في ديار أمريكا مراث فيه تعبير عما عصفت بقلوبهم من حزنهم  
على زميلهم حزناً عميقاً ، ومن قول نسيب عريضة فيه :

أَيُّهَا الشَّاعِرُ الْأَلْهِيُّ طُوبَى لَكَ فِي الْأَوْجِ حَيْثُ رَوَّحَكَ تَرْتَعٍ  
أَمْسَكَتَ الْبَيْنَ شَذُورًا نَايِكَ لَكُنْ لَمْ يَزَلْ لَحْنُهُ يَرِنُ وَيُسْمَعُ  
وَأَنَاشِيدُكَ الْحَسَنُ مَتَّبِقِي خَيْرِ لِمَازِلٍ لَأُمَّةٍ تَتَفَجَّعُ  
أَرْزَ لَهْنَانِ اطَّأطَأَ الْهَامَ وَانْخَسَعُ سَكَتَ الشَّاعِرِ الَّذِي كَفَتْ تَسْمَعُ  
سَيَسَامِيكَ فِي جَوَارِكِ قَبْرِ هُوَ فِي قَلْبِهِ أَعَزُّ وَأَرْفَعُ

وعلى هذه الشاكلة كلما سقطت القيثاراة من يد شاعر في عصرنا تولاه إخوانه  
وزملائه بالبكاء عليه ، ونثروا على قبره أزهار شعرهم ، وبثوه نفثاتهم الشجية .

## ٥

### حفلات التأبين الحديثة

مر بنا في نضاعيف حديثنا ما يدل على أن أسلافنا عرفوا تأبين الجماعات من  
الشعراء لفقيد راحل ، إذ كانت تقف بقبر بعض الراحلين طوائف من الشعراء ،  
فترثيه ، وتؤبونه ، وتعرض لسجاياء ومناقبه ، وتحدث عن علمه الغزير إن كان عالماً ،  
وأدبه الخصب إن كان أديباً ، كاتباً أو شاعراً . ومعنى ذلك أنهم عرفوا التأبين  
الجماعي .

وهكذا شأن عصرنا ، فقد يقف الشعراء على قبور الراحلين ، وقد يعودون بعد وفاتهم ، فيحتفلون بذكراهم ، إما في تمام الأربعين يوما من وداعهم ونزولهم في مثواهم الأخير ، أو بعد ذلك ، حسب الظروف والأحوال . وما تزال الصحف تطلع علينا من حين إلى حين بهذه الحفلات التي يتناول فيها الخطباء والشعراء سير الراحلين .

وتتنوع هذه الحفلات ، فهي تارة تعرض لمصلح اجتماعي كبير أو صحفي خطير أو زعيم وطني عظيم ، أو شاعر عشت له الوجوه ، أو كاتب انحنت له الرسوم ، وفي دواوين شعرائنا قصائد كثيرة نظموها في هذه الحفلات .

وتستطيع أن ترى صورة واضحة منها في كتاب « ذكرى الشعراء : حافظ وشوقي » لأحمد عبيد ، فقد جمع فيه أكثر وأجمل ما قيل في تأبينهما نثراً وشعراً ، وهو كتاب نفيس ، بما صور فيه كتابنا وشعراؤنا عمل الشعراء جميعاً .

ومن حين إلى آخر يظهر مثل هذا الكتاب . ومن الظواهر الطريفة أن المرأة اشتركت في حياتنا الحديثة وأنها تقدمت تحمل اللواء في الشعر وفي النثر وفي الحياة العامة .

وكان لمي زيادة دور كبير في حياتنا الأدبية ، وكان لها منتدى يجتمع إليه الأدباء والشعراء ، كما كان لها رسائل أدبية لطيفة . فلما توفيت بكأها البرق ونعها الصحف ، وأقيم لها حفل تأبين تمجيداً لها ولأبائها وتحية لروحها وما وهبت من نفسها . وطُبعت الكلمات والقصائد التي أُلقيت في هذا الحفل ، وما جاء فيها على لسان العقاد :

حيّ (مَيًّا) إن من شيع ميّا منصفا حيّ اللسان العربيّا  
وجزى حواء حقاً سرمديا وجزى (مَيًّا) جزاء أريجيا  
للذي أسدت إلى أم الكتاب

وجزى في عصرنا الكتاب والشعراء لموت السيدة هدى شعراوى زعيمة النهضة النسائية في مصر ، التي أسست من مالها دوراً ومدارس لمن كبا بهم الحظ العاثر ، كما أخذت بأيدي كثير من الفتيات والفتيان ، ممن رأت لديهم مواهب عالية ،

فأرسلتهم إلى حواضر الغرب ليُكملوا علمهم وفنهم . وهذه الأيادي الكثيرة لم تذهب عبثاً ، فقد تجمعت منها باقة عطرة من الذكرى ، نُثرت على روحها في حفل تأبين كبير ، تحدث فيه جمهور من الكتاب والشعراء ، أحصوا أعمالها الباهرة ، ومجّلوا جهودها الرائعة ، وتحليل مطران مرثية بديعة صور فيها ما قدمت لوطنها من أجداد ومفاخر ، ومن قوله :

هَدَى ! بُلُغْتَ بِمَا أَبْلَيْتِ مَنْزِلَةً      عَصَاءُ خَالِدَةِ الذِّكْرِى عَلَى الْحَقِيبِ  
فَقَدْ تَفَرَّدْتَ بِالْأَفْعَالِ بَاهِرَةً      كَمَا تَفَرَّدْتَ بِالْأَقْوَالِ وَالْخُطْبِ  
مُؤَسَّاتِكَ لَوْ عُدَّتْ وَلَوْ وَصِفَتْ      لَمَا انْتَهَى عُجْبٌ إِلَّا إِلَى عَجَبِ  
آيَاتُ عَصْرِ جَدِيدٍ لِلرُّقَى يَرَى      مُسْتَقْبَلَ الشَّعْبِ فِيهَا كُلُّ مَرْتَقِبِ  
بِهَا تُعَدُّ الْبَنَاتُ الصَّالِحَاتُ لَهُ      وَالْأُمَمَاتُ لَجِيلٍ عَامِلٍ دَرَبِ

وليست المرأة وحدها التي تستحق نظراً في هذه الحفلات الحديثة للتأبين ، فإننا نجد فيها تكريماً للنابعين من الفنانين ، لا الكتاب والشعراء فقط ، بل أيضاً النحاتين والرسميين ، وأصحاب الموسيقى والغناء ، ولشوقي مرثية طويلة أُلقيت في حفلة تذكارية تمجيداً للشيخ سلامة حجازي الذي تسنم قمة المجد في فني الغناء والتمثيل أوائل هذا القرن ، وفيها يقول :

يَا ثَرَى النِّيلِ فِي نَوَاحِيكَ طَيْرٌ      كَانَ دُنْيَاً وَكَانَ فَرَحَهُ جِيلٌ  
لَمْ يَزَلْ يَنْزِلُ الْخَمَائِلَ حَتَّى      حَلَّ فِي رُبُوعِهِ عَلَى سُلْسِيلِ  
عَبْقَرِيًّا كَأَنَّهُ زَنْبَقُ الْخُلْدِ      دَخَلَ فَرْعَةَ السَّرِيِّ الْأَسِيلِ<sup>(١)</sup>  
أَيْنَ مِنْ مَسْمَعِ الزَّمَانِ أَغَاةُ      عَلَى عَلِيَّهِنَ رُوعَةُ التَّحْمِيلِ  
أَيْنَ صَوْتُهُ كَأَنَّهُ رَنَّةُ الْبُذْ      بُلْ فِي النَّاعِمِ الْوَرَيْفِ الظَّلِيلِ  
فِيهِ مِنْ نَعْمَةِ الزَّامِيرِ مَعْنَى      وَعَلَيْهِ قَدَامَةُ التَّرْتِيلِ

(١) السرى : الجدول والأسيل : الطويل المسترسل .

وإذا أخذنا نقرأ في ديوانى حافظ وشوقى راعنا أنه لم يمت صاحب عمل مجيد ناصع في حياتنا الحديثة أو صاحب رأى وعقيدة ، أو صاحب مثل وغاية نبيلة ، إلا اجتمع لإخوانه على ذكره ، وأقاموا له تأيينا حافلا ، ووقف حافظ معهم أو وقف شوقى ، أو وقفنا جميعاً ينثران مدامعهما وأشعارهما على الراحل الكريم . ويحذو حذوهما بقية الشعراء في أقطارنا العربية .

وقد أخذت تظهر في التأيين هنا وهناك تلوينات حديثة لم يكن يعرفها الشعراء في العصور الماضية ، إذ كان الشاعر يحصر نفسه في المناقب الفردية الخاصة بالراحل ، أما في عصرنا الحديث فإن الشعراء أخذوا يعرضون في رثائهم للمناقب الاجتماعية ، وما أسداه الفقيد لمجتمعه من وجوه برٍّ وإصلاح في مختلف نواحيه ، فإذا مات مثلاً قاسم أمين الداعى لتحرير المرأة عرض الشعراء في رثائه لدعوته على نحو ما نجد عند حافظ وشوقى في تأيينه ، ولو أنهما لم يكونا حينئذ من رايه .

ولعل أهم التلوينات التى أدخلت على المراثية الحديثة ما انصب من النزعات السياسية والوطنية فقد نزل الاستعمار بالأمم الشرقية ، ولم يلبث أن ظهر في كل بلد من بلادنا مجاهدون وزعماء استحقوا تمجيد أوطانهم . وكان كلما نعى البرق واحدا منهم هب شعراؤنا يوقعون على قيثاراتهم أشجان المواطنين وأحزانهم . وفي ديوانى حافظ وشوقى مراث لسعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم ممن تقدموا الصفوف ، وضغطوا على المستعمر بكل ما يملكون من قوى في أوطانهم . وهذا حافظ يقول في مصطفى كامل :

شاهدتُ يوم الحشر يوم وفاته	وعلمتُ منه مراتبَ الأقدارِ
ورأيتُ كيف تفى الشعوبُ رجالها	حقَّ، الولاءِ وواجبَ الإكبارِ
تسعون ألفاً حول نعشك خُشَعٌ	يمشون تحت لوائك السيارِ
خطوا بأدمعهم على وجه الثرى	للحزبِ أسطاراً على أسطارِ
آنا يوالون الضجيجَ كأنهم	ركبُ الحجيجِ بكعبة الزوارِ
وتخالهم آنا لفرط خشوعهم	عند المصلّى يُنصتون لقارى

وواضح أنه يصور فجيرة الأمة المصرية فيه ، والمرثية كلها تدور حول جهاده وما غرس في وطنه من حراب للمستعمر بما كان يكتب في صحيفة « اللواء » وبما كان يخطب في أمته ضد كرومر والإنكليز ، وبواقفه الوطنية التي ألهمت مشاعر المصريين ، وسعرت نيران الصراع فيهم ضد المستعمرين الغاشمين . ومرثية شوق في سعد زغلول التي يستلها بقوله :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها      وانحنى الشرق عليها فيكاها

أروع ما ديجته يراعتة في الرثاء الوطني . وهو يضيف إلى مراثيه الوطنية مراى لزعماء العرب وقاديتهم في بلدانهم المختلفة ، فهذا فوزى الغزى أحد المجاهدين ضد الفرنسيين في سوريا الشقيقة ، تقيم له بلاده حفل تأبين ، فيأبى شوق إلا أن يرفرف بروحه مع المؤبنين ، فيرسل بمرثية تتلى في الحفل ، وفيها يقول :

يا ( فوزى ) تلك دمشق خلف سوادها      ترمى مكانك بالعيون وترمق<sup>(١)</sup>  
( بردى ) وراء ضفافه مستعبر<sup>(٢)</sup>      والحدود محلول الضفائر مطرق<sup>(٣)</sup>  
والطير في جنبات ( دمر ) نوح<sup>(٤)</sup>      يمدد المسموم خليه<sup>(٥)</sup> ويأرق<sup>(٦)</sup>

وعلى هذا النحو أصبح عالمنا العربى الحديث أشبه بالجسد الواحد ، إذا اشتكى فيه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والالام

( ١ ) سواد دمشق : القرى التابعة لها .

( ٢ ) بردى : نهر يشق دمشق ، والحدود : شجر ، وضفائره : غصونه .

( ٣ ) دمر : من ضواحي دمشق ، والخل : الخل ، المسموم : المسموم .

## الفصل الثالث

### العزاء

١

#### معنى العزاء

أصل العزاء الصبر ، ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت ، وأن يرضى من فقد عزيزا بما فاجأه به القدر ، فتلك سنة الكون ، نولد ، ونمضي في الحياة سعداء أو أشقياء ، ثم نموت ، وكأن الناس راحلون وهم لا يفكرون عَقْد رَحْلهم إلا في أجداثهم ، فهي قرارهم ، وهي غايتهم التي ينتهون إليها ، ولا مفر لهم منها ولا خلاص .

وإذن فليقبلوا الحياة كما هي ، ليقبلوها على أنها دار زوال وانتقال ، وليست دار بقاء واستمرار ، فكل يلعب دوره ويمضي ، ولا شيء يدوم . يقبل النهار المشرق ثم يدبر ويخرج الليل المظلم ، وينعقد السحاب وتبكي السماء ثم يصحو الجو ويصفو . والإنسان ضعيف أمام هذا التغير والتقلب ، لا يملك من أمره ولا من حياته شيئا ، فسرعان ما يعصف به الموت ، فإذا هو محمول على آلة حدة باء .

إنه عاجز ، وليس له إلا أن يلعن إذعانا خالصا ، إذعانا لا تشوبه مقاومة ، وهل من أمل في مقاومة ، وهو يرى نفسه كل يوم مشدوداً في خيوط قوية بيد قاهرة تدبر شؤنه ، وقد تنتهي به إلى الإخفاق في أمله بل في روحه وجوده ، فإذا هو لا يستطيع أن يستأنف نشاطاً ولا فوزاً وانتصاراً .



وهؤلاء الذين نحبهم ونؤثرهم على أنفسنا من آباء وأبناء وإخوة ماذا نستطيع أن نقدم لهم حين تحين ساعتهم ؟ إننا مهما فكرنا وقدرنا لن ندفع عنهم صيحة الموت البغيضة . ونحن نلرف الدموع لفراقهم ملرازا ، ولكن ماذا تفيد الدموع ؟ وماذا يفيد الأسى والحزن ؟ إنه لا بد من أن نحتمل المكروه ونتعزى ونصبر على ما نزل بنا .

وكان شاعر الجاهلية القديم يفكر في هذا كله ، فكان يحزن ويبكى ويلتاع ويعبر عن ذلك تعبيرا قويا في شعره ، ثم يعود إلى نفسه ، فيرى أن كل ما يصنعه لا يغنيه شيئا ، لأن المحنة في حقيقتها محنة كبيرة ، محنة الناس جميعا ، يُمتحنون بها صباح مساء ، ولا يستطيعون لها ردا ولا دفعا . فليترك البكاء والدموع وليستسلم للموت مخلولا ، بل يائسا مقهورا ، فالناس كلهم يموتون والناس كلهم يصابون بحميم أو قريب ، ولعل ذلك ما جعل الخنساء تقول :

ولولا كثرة الباكين حولى      على إخوانهم لقتلتُ نفسى  
وما ييكون مثل أخى ولكن      أعزى النفس عنه بالتأسى

فهى تجد فى بكاء غيرها ما يعزىها عن أخيها ويسليها عن مصيبتها فيه ، وكان غيرها من الشعراء يمد بصره إلى أفق أوسع ، فيرى أن الحزن والبكاء لا يردان أحدا ، وأن جريتا به أن يكون جلدا صابرا على المصيبة تلم به ، ولا يستشعر خذلانا ولا ضعفا .

ونجد عند كثير من الجاهليين نزعة إلى الاستسلام للقدر ، فالموت كأس يذوقها الجميع ، لم يسلم منها أحد ، لا ملك ولا سوقة ، وكم من دولة دالت وجماعة بادت ، من مثل قوم نوح وعاد وثمود ومثل كسرى وسابور ملكى الفرس وملوك الروم المختلفين وملوك الحيرة . ولعدى بن زيد العبادى شعر كثير فى ذلك ، يقول فى بعض قصيده :

أين أهل الديار من قوم نوح      ثم عاد من بعدها وثمود

ويقول :

أين كسرى، كسرى الملوك أنوشير . وان أم أين قبله سابور .  
وبنو الأصغر الكرام ملوك ال روم لم يبق منهم مذكور

وكان الجاهليون يثيرون هذه الأفكار وما يشبهها للتعزى عن الموت وبيان  
أن داعيه لا يقطع ، وأن كل إنسان إليه يرجع .

ولما عمت أضواء الإسلام في النفوس أخذت تظهر معه نزعة جديدة في العزاء  
تقوم على التسليم لله والرضا بقضائه والصبر على امتحانه احتساباً وطلباً للأجر  
والثوبة من عنده واقتداء بقوله سبحانه «وبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ  
قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ  
الْمُهْتَدُونَ » .

## ٢

### العزاء في الأهل

كانت العادة في الجاهلية أن يعزى الشاعر نفسه إزاء من يفقد من أهله  
وأشراف قبيلته ، فعزاؤه يوجه قبل كل شيء إلى نفسه ، ثم إلى من حوله . ولما جاء  
الإسلام ونشأت طبقات الخلفاء والولاة ، وأخذت تتألف حول كل خليفة وأمير  
أو حاكم كبير طبقة من الشعراء تقف نفسها على مديحه وتسلية إن أراد التسلية  
وأينا هذه الطبقة تعتمد حين تلم به مصيبة إلى تعزيتة فيها . ودار ذلك أكثر ما دار  
حول فقد الأبناء وأفلاذ الأكباد ، فكان الشاعر إذا مات ابن لخليفة يطر إلى  
تخفيف بلواه فيه بأبيات تحد من لوعته ، وتكسر من فجيعة ، بما يذكر من  
أن الموت حتم واجب على الناس ، فكل نفس ذائقة الموت ، وكل إنسان راحل  
إلى القبر ، على نحو ما قال بعض الشعراء لعمر بن عبد العزيز وقد توفى ابنه  
عبد الملك :

تَعَزَّى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ لَمَّا قَدَّمُوا يُغَذِّي الصَّغِيرَ وَيُوَلِّدُ  
هَلْ ابْنُكَ إِلَّا مِنْ سُلَالَةِ آدَمَ لِكُلِّ عَلَى حَوْضِ الْمَنِيَةِ مَوْرِدُ

وقد يعرض الشعراء لمعان اجتماعية ، وخاصة معنى الشجاعة في المصيبة ،  
فيحدثون عن أن الموت لا يسلم منه أحد ، وأن من لم يدركه اليوم في عزيز له  
يدركه غدا ، فَيُشْطَرُّ مِنْهُ أَصْلُهُ أَوْ فَرْعُهُ ، وَيُفْجَعُ فِي أَحَبَّتِهِ ، وَتُقَرَّحُ جَفُونُهُ فِي  
أَهْلِ مَوَدَّتِهِ . وألم ابن عبد الأعلى بهذا المعنى في تعزيتة سليمان بن عبد الملك في  
ولي عهده وأكبر ولده أيوب ، إذ يقول :

وَلَقَدْ أَقُولُ لَدَى الشَّمَاتَةِ إِذَا رَأَى جَزَعِي وَمَنْ يَذُقِ الْحَوَادِثَ يَجْزَعُ  
أَبْشِرْ فَقَدْ قَرَعَ الْحَوَادِثُ مَرْوَتِي وَافْرِخْ بِمَرْوَتِكَ الَّتِي لَمْ تُقَرَّعْ  
إِنْ عِشْتَ تَقْجَعُ بِالْأَحَبَّةِ كُلِّهِمْ أَوْ يَفْجَعُوا بِكَ إِنْ بِهِمْ لَمْ تَقْجَعْ  
أَيُّوبُ مَنْ يَسْمَتُ بِمَوْتِكَ لَمْ يُطَقْ عَنْ نَفْسِهِ دَفْعًا وَهَلْ مِنْ مَدْفَعٍ

ووقف الشعراء في مرأى الخلفاء بأبنائهم عند فكرة الاحتساب وطلب ما عند  
الله ، وأكثروا في ذلك كما أكثروا من الحديث عن خسارة الدين بموتهم وأنهار  
أركانهم بفقدهم ، وفي ذلك يقول أشجع معزيا هرون الرشيد في ابن له مات شابا :

نَقَصَ مِنَ الدِّينِ وَمِنْ أَهْلِهِ نَقَصُ الْمَنَايَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ  
قَدَّمْتَهُ فَاصْبِرْ عَلَى فَقْدِهِ إِلَى أَبِيهِ وَأَبِي الْقَاسِمِ

وهو يريد بأبي القاسم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقول له إنه في ميزانك  
يوم القيامة ، وقد قدمته فلا تجزع ، واصبر حتى يكتب لك في باقياتك  
الصالحات . ومن تعازي الخلفاء المشهورة في أبنائهم مراثية الشاعر المصري كمال  
الدين بن النيه في علي بن الخليفة الناصر لدين الله ، وهو يستهلها بقوله :

النَّاسُ لِلْمَوْتِ كَخَيْلِ الطَّرَادِ فَالسَّابِقُ السَّابِقُ مِنْهَا الْجَوَادُ

والله لا يدعو إلى داره  
والموت نقاذ على كفه  
والمرء كالظل ولا بد أن  
يلا من استصلح من ذا العباد  
جواهر يختار منها الجياد  
يزول ذاك الظل بعد امتداد

ثم أخذ يبكيه حتى انتهى إلى قوله :

خليفة الله اضطرب واحتسب  
في العلم والحلم بكم يقتدى  
وأنت لج البحر ما ضره  
فا وهى البيت وأنت العباد  
إذا دجا الخطب وضل الرشاد  
أن سال من بعض نواحيه واد

وكثيراً ما كان الشعراء يحولون التعزية إلى البكاء على الفقيده والإشادة به ،  
كانهم يرون في ذلك ما ينفس بعض الشيء عن الألب الحزين ، وكانهم  
يدأون القرح بالقرح ، فهم يكون معه ويسترجعون حتى تثوب نفسه إلى رشدها  
وتسكن بعد فورة الدموع وثورة النواح والأنين ، فقد أدبت للولد الحقوق وكان  
التراب لم يسوار إلا أعظمه ، أما ذكره فباقية ، وهى ذكرى تبكى ، ونفس البكاء  
فيها هو الصبر والتأسى . ومعنى ثان في هذا العزاء ، كأن الشاعر يقول إن الناس  
فداء هذه الخلال ، وليس بينهم إلا من يفدى الراحل الكريم . ومن هذا اللون  
قول أبي تمام في ابنين لعبد الله بن طاهر صاحب خراسان لعهد المأمون ،  
وكانا ماقا صغيرين في يوم واحد :

تجمان شاء الله ألا يطأ  
إن الفجعة بالرياض نواضراً  
لو يُلسان لكان هذا غارباً  
لهفى على تلك الشواهد فيهما  
لغدا سكونهما حببى وصباها  
لأجل منها بالرياض ذوايلاً  
للمكرمات وكان هذا كاهلاً<sup>(١)</sup>  
لو أمهلت حتى تكون شماتلاً  
خلفاً وتلك الأريحية نائلاً

(١) ينسأ : يؤجل ، والفارب : أسفل العنق إلى الظهر .

إن الهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيصيرُ بذراً كاملاً

فهو يبكي طفلين في المهد ، ومع ذلك أبي إلا أن يجتمع عليهما شواهد لشمائل زكية ، وقد أخذ يصورهما بصور تكبر من المصيبة فيهما ، وكأنه يريد أن يشفي غُلة أبيهما ويطفىء حرقه فؤاده ، فهما روضان ذبلا في إبانهما ، وهلالان أصابهما الحاق في أولهما ، وهما نفضحة من أبيهما لم تلبث أن فثت وذابت في خضم الحياة .

ومن أطرف ما جاء في عزاء الأبناء مربة للمتني في أبي الهيجاء بن سيف الدولة ، فقد رحل عن أبيه إلى الدار الباقية قبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، فبكاه المتني وعزاه فيه بقصيدة رائعة من قصائده ، افتتحها بوصف الحزن عليه وخمش النساء لوجوههن ولطمهن وندبهن ، وقال إن مثله لا يُبكي عليه بقدر سِنه ، فهو صغير ، وإنما يبكي عليه بقدر أصله وشرفه ، ثم توجه إلى سيف الدولة قائلاً :

عزاءك سيف الدولة المقتدى به      فإنك نصل والشدائد للنصل  
ولم أر أعصى منك للحزن عبرة      وأثبت عقلاً والقلوب بلا عقل  
ومن كان ذا نفسٍ كنفسك حرق      فقيه لها مغني وفيها له مُسلي

ورجع يتحدث عن الموت الذي نزل بهذا الغلام مستعبداً باكياً ، مستخرجاً العظات على عاداته ، فالدنيا كلها غرور ، والبقاء فيها قليل ، واستمر في ذمها ، حتى انتهى غاضباً إلى قوله :

وما الدهرُ أهلٌ أن تؤملَ عنده      حياةً وأن يشتاقَ فيه إلى النسلِ

والعزاء في الأبناء كثير ، أما البنات فيندر العزاء فيهن وخاصة في العصور الأولى ، وكان هذا أثر من آثار عرب الجاهلية الذين يقول فيهم القرآن الكريم « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به ، أيمسكه على هُون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون » .  
ومن الخلفاء الذين حزنوا حزناً شديداً لفقد إحدى بناتهم الخليفة المهدي ،

ومن عزّاه فيها أبو العتاهية . وهذا بعض عزائه :

كَأَنَّ كُلَّ نَعِيمٍ أَنْتَ ذَاتُهُ      مِنْ لَذَّةِ الْعَيْشِ يَحْكِي لَمَعَةُ الْآلِ  
لَا تَلْعِينُ بِكَ الدُّنْيَا وَأَنْتَ تَرَى      مَا شُئْتَ مِنْ عِبَرٍ فِيهَا وَأَمْثَالِ  
مَا حِيلَةُ الْمَوْتِ إِلَّا كُلُّ صَالِحَةٍ      أَوْ لَا فَمَا حِيلَةُ فَيْسُورِ لِحْتَالِ

ونعمة أبي العتاهية المشهور بها من الوعظ والتزهيد في الحياة وبيان أن كلها مصائب واضحة هنا . وهو من أكثر الشعراء حديثاً عن الموت ، وأنه لا بد واقد على حال ، فالعاقل من يتجهز له ويعد نفسه لفراق الأهل والمال .

وعزّى البحري أحد بني حميد المشهورين بالشجاعة والبطولة لعصره في ابنة له ماتت ، ومن الغريب أنه لم يجد باباً يدخله إلى عزائه فيها إلا ما كان يستشعره العرب في بناتهم ، فقد مضى يواسيه على هذا النحو :

الْأَسَى وَاجِبٌ عَلَى الْحُرِّ إِمَّا      نَيْسَةَ حُرَّةً وَإِمَّا رِيَاءَ  
أَتَبَكُّي مِنْ لَا يُقَاوِلُ بِالسَّيِّ      فِ مَشِيحَا وَلَا يَهْزُ اللَّوَاءُ<sup>(١)</sup>  
وَالْقَتَى مِنْ رَأَى الْقُبُورِ لِمَنْ طَا      بَ بِهِ مِنْ بَنَاتِهِ أَكْفَاءَ  
لَسَنَ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ لَعَدُّ اللَّهِ      مِنْهَا الْأَمْوَالُ وَالْأَبْنَاءُ  
قَدْ وَلَدَنَ الْأَعْدَاءَ قَدْ مَا وَرَدُ      نَ التَّلَادِ الْأَقَاصَى الْبُعْدَاءُ<sup>(٢)</sup>  
لَمْ يَنْبُذْ تَرْبَهُنَّ قَيْسُ تَمِيمٍ      عَمِيلَةً بَلْ سَحِيَّةً وَإِبَاءَ<sup>(٣)</sup>  
وَتَلَقَّتْ إِلَى الْقِبَائِلِ فَانْظُرُ      أُمَهَاتٍ يُنْسَبْنَ أُمَ آبَاءِ  
وَاسْتَزَلَّ الشَّيْطَانُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ      لَمَّا أَغْرَى بِهِ حَوَاءُ

(١) المشيح : المانع لما وراء ظهره .

(٢) التلاد : المال القديم .

(٣) قيس : هو قيس بن عاصم النخعي ، وكان يند كل بنت تولد له : والترب : الجماعة ،  
والعميلة : الغفيرة .

ولعمري ما العجز عندي إلا أن تبيت الرجال تبكي النساء

فهو يحمد له موت ابنته ، وأن كان القبر كُفَسَتْهَا ، ويأخذ في تعداد مساوي المرأة في رأيهِ ، فهي لا تتأكل الأبطال ، وقد تلد الأعداء ، وهي تنقل المال الموروث من بيت أبيها إلى الأفاصي الغرباء . إن كل امرأة حرة بالموت ، وكان قيس بن عاصم — في رأيهِ — محقاً في وأد بناته ، ويقول إن الله لم يدهن في زينة الدنيا إذ قال جل وعز « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . وهذه مغالطة من البحتري ، لأنه يعرف أن جمع الذكور والإناث يغلب فيه الطرف الأول ، فكلمة البنون في الآية الكريمة تشمل البنات ، وقد رأينا حلة القرآن على العرب لنفس هذا الموقف الذي يقفه البحتري . وغالط مغالطة أخرى في أن العرب لا تنسب إلى الأمهات . بينما النسب إلى الأمهات عندهم شائع في القبائل وفي الأفراد .

والحق أن العزاء هنا يتحول إلى ما يشبه هجاء المرأة . وهي على كل حال نظرة تستمد من القديم . وتلا البحتري كثير من الشعراء يذهبون هذا المذهب مثل كشاجم في قوله :

تأس يا أبا بكر	لموت الحرقة البكر
قد زوجتها القبر	وما كالتبر من صبر
وعوضت بها الأجر	وما كالأجر من مهر
زفاف أهديت فيه	من الحذر إلى القبر
وقد يختار في المكرو	للمرء وما يدرى
فقابل نعمة الله	وما أولاك من شكر

ولعل من الواجب أن نذكر هنا أن هذه النظرة تغيرت في عصرنا ، ولم يعد لها ظل ولا ما يشبه الظل في شعرنا ، إذ أصبح للمرأة شأن كبير في حياتنا ، وأصبحت ركنا قويا في معيشتنا المادية والعقلية ، ولم تعد هينة على النفوس ، بل

أصبحت ذات منزلة كبيرة ، وقد ساهمت في كل شئوننا أثناء السلم وفي الحرب ، ونالت كثيرا من حقوقها ، وهي في سبيل الظفر ببقية الحقوق . ومن هنا اختلفت اللهجة في رثائها وفي التعزية فيها ، ولم تعد مثل أفكار البحري وكشاجم تجري على ألسنة الشعراء ، إنما يجري مثل قول حافظ معزياً للبارودي في كريمته :

يا بنتَ (محمود) يعزُّ على الورى	لَسُ الترابِ لجِسمِكَ النهوك
تركوا شبابك فيه نهياً لليلِ	واهاً لغَضِّ شبابك المترك <sup>(١)</sup>
وحثَّوه فوق سناك يا شمس الضحى	فبكى له بدُّ السَّماء أخوك <sup>(٢)</sup>
يا نفسَ (محمود) وأنتِ عليمٌ	بطريقِ هذا العالمِ الملوک
عهدوك لا تتصدَّعين لحادثٍ	أو أنتِ باقيةٌ كما عهدوك
هذا التراب—وأنتِ أعلم—ملتقى	هذا الورى من سوقٍ وملوك

وهذه نعمة أخرى فيها تقدير ، واعتراف بجلال الرُّزء . وقد مرَّ في حفلات التآبين ما يوضح المساواة التامة في عصرنا بين فقد النساء وفقد الرجال

على أن شعراءنا القدماء إذا كانوا قد قصروا في رثاء البنات فلأنهم لم يقصروا في رثاء الأخوات والأمهات وربما كان المتنبي خير من عزى فيهن ، فقد توفيت أخت سيف الدولة ، وهو نازل برحابه ، يغمره بصلاته ، فنظم فيها قصيدة بديعة من قصائده ، تحدث فيها عن غدر الموت وأثر نعيها في الناس وأثنى على خلالها وصفاتها ، وما زال يثني عليها ، حتى قال :

فإن تكن خلقتُ أنثى لقد خلقت	كريمةً غير أنثى العقل والحسب
وإن تكن تغلبُ الغلباءَ عنصرها	فإن في الخمر معنى ليس في العنب
فليت طالعةُ الشمسين غائبةٌ	وليت غائبةُ الشمسين لم تغيب

(١) الغضب : التامع .

(٢) حشا التراب : هاله .



فهى إن كانت أنثى الحلقة فإنها فى الشرف والعقل أعلى من الرجال ، وإن يكن أصلها التغلبى كريما فإنها أفضل من أصلها لمحاسنها وشيمها ومعانيها الطيبة ثم يتمنى لو أن الشمس غابت وفقدت ، ولم تغب أخت سيف الدولة ولا فقدت . والتفت المتنبي بعد ثنائه إلى سيف الدولة يحدثه عن الأيام وعن أخت له قبلها فقدها ، وأشاد به ، ودعا له أن لا تناله الليالى فإنها إن ضربت أصمت ، وحطمت القوى بالضعيف ، كما دعا له أن لا تعين من عاداه ، ثم تحدث عن فجعته الدهر وأن الإنسان يصاب دائماً بمحن ليست فى حسابه .

وللمتنبي تعزية أخرى لسيف الدولة فى أمه ، وهى لا تقل عن هذه التعزية روعة ولا جمالا ، افتتحها بأننا نعد السيوف والرماح للمنازلة الأعداء ، وتخترمنا المنون دون قتال أو نزال ، ومضى يتحدث عن عشق الناس للعالم ، وكيف أن وصالها لا يدوم . وتحول يصف كثرة ما يتوالى عليه من مصائب الدهر ، ثم انتقل إلى رثاء أم سيف الدولة فأبنتها مبالغا فى تأبينه ، مضيفا عليها خير الصفات وأجملها وأنبلها ، وما زال فى ذلك ، حتى قال مخاطبا سيف الدولة :

أَسَيْفَ الدَّوْلَةِ اسْتَنْجِدْ بِصَبْرِ      وَكَيْفَ بِمِثْلِ صَبْرِكَ لِلْجِبَالِ  
فَأَنْتَ تَعْلَمُ النَّاسَ التَّمَرُّزَى      وَخَوْضَ الْمَوْتِ فِي الْحَرْبِ السَّجَالِ  
وَحَالَاتُ الزَّمَانِ عَلَيْكَ شَتَّى      وَحَالُكَ وَاحِدٌ فِي كُلِّ حَالِ

فهو يدعوه أن يستعين على مصيبيته فى أمه بالصبر ، لأنه أهله ، إذ له ثبات يفوق ثبات الجبال وركائنها . ثم قال له : إن الناس يتعلمون منك العزاء والصبر على اقتحام الموت وغمراته الشداد ، وإن الزمان نفسه ليتلون كالخرباء بألوان مختلفة فى السراء والضراء ، أما أنت فتثبت على حال واحدة فى الشدة والرخاء ، فمثلك حرى بأن لا يهن فى هذه المنازلة ، وأن لا يصيبه خور ولا ضعف . ومن أبيات هذه المراثية :

وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كُنْ فَقَدْ نَا      لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ  
وَمَا التَّأْنِيثُ لَأَسْمَ الشَّمْسِ عَيْبٌ      وَلَا التَّذْكَيرُ فُخْرٌ لِلْهَلَالِ

وواضح أنه احتج لتفضيل النساء على الرجال بحجة لطيفة ، فالشمس مؤنثة وهى تفضل الهلال بنورها الذى يغمر الآفاق .

## العزاء والتهنئة

لم نتحدث عن العزاء في الآباء وهو كثير ، غير أننا نقف منه عند موضوع طريف ، وذلك أن الخلفاء والسلاطين كانوا يتوارثون دولهم وإماراتهم ، فكان الشاعر يقوم بين يدي الخليفة أو السلطان الجديد يعزيه في أبيه وبهنته بحكومته ودولته وما انتهى إليه من خلافة أو إمارة .

وأول من فتح هذا الموضوع ، وأظهر براعة فيه عبد الله بن همام السلولي ، وذلك أن معاوية توفى وخلفه ابنه يزيد ، فلم يقدم أحد على تعزيتة لدقة الموقف وصعوبته ، وما زالوا كذلك حتى فتح لهم ابن همام باب الكلام ، فقال :

اصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَامِقَةً      واشْكُرْ حِبَاءَ الَّذِي بِالْمُلْكِ حَابَا كَا<sup>(١)</sup>  
لَا رُزْءَ أَعْظَمُ فِي الْأَقْوَامِ قَدْ عَلِمُوا      مِمَّا رُزِئْتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَا كَا  
أَصْبَحْتَ رَاعِيَ هَذَا الْخَلْقِ كُلِّهِمْ      فَأَنْتَ تَرْعَاهُمْ وَاللَّهُ يَرْعَا كَا  
وَفِي مُعَاوِيَةَ الْبَاقِي لَنَا خَلْفٌ      إِذَا بَقِيتَ فَلَا نَسْمَعُ بِمَنْعَا كَا

ومعاوية الذي يشير إليه في البيت الأخير هو ابن يزيد وولي عهده . والأبيات فيها براعة ، وفيها دقة بعيدة في الإحساس ، ولطف ورقة في الشعور .

ومن وقف هذا الموقف الدقيق ، وأحسن فيه ، بل كاد يقلب لحظته الحزينة إلى لحظة سرور وفرح أبو الشَّيْص الشاعر العباسي ، فإنه قام بين يدي الأمين بعد وفاة أبيه هارون في طوس إحدى مدن إيران ، فقال :

جَرَّتْ جَوَارِي السَّعْدِ وَالنَّحْسِ      فنحن في وحشة وفي أنس

(١) المقّة : المحبة ، والحباء : السطاء .

العينُ تبكى والسنُّ ضاحكةٌ      فنحنُ في ماتمٍ وفي عُرْسِ  
يُضحكنَا القاتمُ الأمينُ وَتَبُّ      كينا وفاة الرشيد بالأمسِ  
بدران : بدرٌ أضْحَى ببغداد في الـ      خُلد و بدرٌ بطوسَ في الرُّمَسِ<sup>(١)</sup>

وتعبر هذه الأبيات خير تعبير عن فرحة الشعراء بالأمين ، إذ كان محبوبا منهم ، قريبا إلى نفوسهم .

ولما توفي المعتصم وخلفه ابنه هرون الواصل تقدم إليه أبو تمام يعزيه ويهنيه بقصيدة طويلة ، افتتحها بالحزن على الراحل والإشادة بمناقبه ومحامده ، وما زال يدور في هذين المعنيين حتى قال :

ما دام هرونُ الخليفةَ فالهدى      في غبطةٍ موصولةٍ بدوامِ  
للهِ أيُّ حياقٍ انبعثتْ لنا      يوم الخميس وبعد أيِّ حِجَامِ<sup>(٢)</sup>  
تلك الرزيةُ لا رزيةَ مثلها      والتَّسَمُّ ليس كسائر الأقسامِ  
ما إن رأى الأقوامُ شمساً قبلها      أفلتَ فلم تعقبهمُ بظلامِ  
أكرمَ بيومهم الذي ملكتهم      في صدره وبماهم من عامِ

واستطرد في مدح الواصل بعد ذلك .

وعلى هذه الشاكلة أخذ الشعراء يصنعون في العزاء والتهنئة قصائد يعلمون فيها بفضائل السابق واللاحق ، ويقولون إن ميزان الدولة والأمة لن يميل ، إذ تولته يد عادلة ، بل إن هذا الخليفة الجديد أرسلته العناية الإلهية لتجبر به الأمة ، ويتم لها صلاحها واستقامتها . وكثيرٌ هم الشعراء الذين وقفوا هذا الموقف ، ومن جلّى فيه عبد الله بن الحسن الجعفرى ، فقد مثل بين يدي العزيز الخليفة الفاطمى يعزيه في أبيه ويهنئه بخلافة مصر قائلا :

(١) الخلة : قصر الخلافة ببغداد ، الرمس : القبر .

(٢) الحِجَام : الموت .

قد أصبح الجوهر العلوي منتقلا      في خير من كان من خير الوري بدلا  
يا منحة كملت في محنة عظمت      لولاك في الدهر ما نال امرؤ أملا  
قام العزيز بما أفضى المرء به      إليه مضطلعا بالعبء محتملا  
فقام أحفظ مسترعى رعى فكفى      من بعد خير إمام قوّم الليلا<sup>(١)</sup>  
فإن مضى كافل الدنيا وما ضمنت      فذا ابنه كافل عنه بما كفلا<sup>(٢)</sup>  
وإن هوى الجبل الراسي فذا جبل      راس لنا بعده أعظم به جبلا  
عمت خلافته الدنيا بروقتها      كأنه الشمس فيها حلت الحلا<sup>(٣)</sup>

وفي الأبيات نزعة شيعية واضحة ، فهو يتحدث عن الجوهر العلوي وكيف انتقل من المرء إلى ابنه ، ويسميها كافي الدنيا ، ويجعل العزيز أحفظ من رعى العباد ، وما يزال يقابل بين الأب وابنه مترحما معزيا ، ومادحا مهتئا ، مستظهرا لبعض العقائد الشيعية .

ومن أجاد في هذا الموضوع ابن زيدون شاعر الأندلس المشهور ، فقد توفي أبو الحزم جهنور ملك قرطبة ، وخلفه ابنه أبو الوليد ، وكان صديقا له ، فنظم قصيدة بارعة ، استهلها بالعزاء والتهنئة على هذا النمط :

ألم تر أن الشمس قد ضمت القبر      وأن كفانا فقدّها القمر البدر  
وأن الحيا إن كان أفلح صوبه      فقد فاض للآمال في إثره البحر<sup>(٤)</sup>  
إساة دهر أحسن الفعل بعدها      وذنب زمان جاء يتبعه العذر  
فلا يتهن الكاشعون فما دجا      لنا الليل إلا ريثا طلع الفجر<sup>(٥)</sup>  
قتل للحيارى قد بدا علم الهدى      وللطامع المغرور قد قضى الأمر

(١) الميل : العوج .

(٢) الكافل : الفاسد .

(٣) الحمل : أول البروج .

(٤) الحيا : المطر : والصوب : الانصباب .

(٥) الكاشعون : الأعداء .

وفي كل مكان من العالم الإسلامي نجد الشعراء يقفون هذا الموقف من  
الحكام ، يعزونه ويهتئونهم معبرين عن فرحة الناس بهم واستبشارهم بتسلمهم  
لمقاييد الأمور بعد آباءهم ، منوهين بما تأمله البلاد من نعم وتم وآلاء نعم .  
ولابن نباتة أبيات تدور على كل لسان قالها يعزى بها السلطان الأفضل صاحب  
حماة في أبيه ويهتئ على تحول الملك إليه ، وهي تجرى على هذا النحو :

هنا سحا ذاك العزاء المقدما	فما عبس الحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام في ثغور مدايح	شبهان لا يمتاز ذو السبق منهما
سقى الغيث عنا ترربة الملك الذي	عهدنا سجاياه أبر وأكرما
ودامت يد النعمى على الملك الذي	ثدانت له الدنيا وعز به الحصى
مليكان : هذا قدهوى لضريحه	برغضى ، وهذا للأسرة قد سما

وكل هذه براعات تفنن الشعراء في إخراجها وتصويرها ، حتى يقلبوا الحزن  
مسرة والبؤس نعيما ، فإذا كان اليوم قد استهل عابسا مكفهرًا ، فإنه انفرط مستبشرا  
مبتهجا ، إنه يوم ماتم وعرس ، وشقاء وسعادة ، وظلام وضياء ، والضياء هو الذى  
يسود ويشرق في جنبات الدولة والأمة كما يشرق النهار . والحق أن شعراءنا  
أجادوا في هذا الموقف ، واستوفوا فيه حظوظا لا بأس بها من المقدرة والمهارة .

#### ٤

### الحياة والموت والخلود

دارت هذه المعانى الثلاث في كثير من قصائد العزاء ، إذ كان من  
يبكى ميتا أو يعزى فيه يعرض للحياة وأنها زائلة ، وأن الموت نهاية كل  
شخص ، وأن على الناس أن يفكروا دائما في هذا المصير الذى ينتظرهم ، وأن  
يتجهزوا له وينعدوا زادهم قبل أن تأزف الآزفة وتحل الكارثة ، وهي كارثة مقررة

لا مفرّ منها ولا تحييص .

وكانت هذه الأفكار تمر بمخيلة الشاعر الجاهلي ، وكان يلم بها ، ولكن في سداجة وبساطة تلائم حياته ، فلما ارتقى العقل العربي أخذت هذه الأفكار تتشعب وتتفرع ، وتمدد جذورها في طبقات جديدة من الثقافة وفهم الحياة وما قرأ العرب عند الأمم الأجنبية من حكم وآراء فلسفية .

وأبو العتاهية الشاعر العباسي أول من بسط الحديث في الموت والحياة ، وساعده في ذلك أنه ساق شعره في ميادين الزهد والوعظ ، واتخذ من الموت أساساً لتنفير الناس من الحياة وبيان أن نعيمها لا قيمة له وكذلك كل ما يتصل بها ، فالمنية تغدو على الناس وتروح ، وكل سيموت ، ولو عُمرَ ماعمر نوح ، فالموت هو النهاية والغاية ، وهو الدائم المستمر ، أما الحياة فسرعان ما تتمحى وتزول ، ولا يبقى للإنسان إلا الصالحات . وهو يبدى ويعيد في أن الناس وقوف على هوة تحت أقدامهم ، وكل فرد يهوى فيها بدوره ، فلا يغرن أحدا الغرور ولا ما يعيش فيه من ترف ونعيم ، فإن ذلك سرعان ما تبدل أزهاره ، وتتحطم محضره أمام الموت الرهيب ، واسمعه يقول في بعض من رثاهم :

لقد كنتُ أغدو إلى قصرِهِ	وقد صيرتُ أغدو إلى قبرِهِ
أنته النيةُ منتالةٌ	رويداً ، تَحُلُّ من سِتْرِهِ
فلم تُغنِ أجناده حوله	ولا المزعون على نصْرِهِ
وخلّى القصورَ لمن شادها	وحلّ من القبر في قعرِهِ
وبدّل بالفرشِ بسطَ الثرى	وطيبَ ندى الأرض من عطرِهِ
وأصبح يَهْدَى إلى منزلِ	عميق تَوُنَّق في حفرِهِ
تُغَلَّق بالسرب أبوابُهُ	إلى يوم يؤذن في حشرِهِ
أشدُّ الجماعة وَجداً به	أشدُّ الجماعة في طمرِهِ (١)

وكان المنيّة تتحول عند أبي العتاهية إلى موعظة ، يتخذ فيها العبرة والمثل من

الموت ، فالناس ولدوا للموت ، وكل ما بينونه من قصور يؤول إلى خراب ، وكل ما يتخذون من عز الدنيا يؤول إلى ذلّ القبر ووحشته . وها نحن ندفن بأيدينا من نحبيهم ، ونلقى بهم وراء التراب والأحجار ، ألا ما أحقر الدنيا وكل ما فيها من سرور المجد وأبهة الترف والنعيم ! . والحكيم من ذهب إلى ما يُريه العقل منها ومن نهايتها المحتومة لا إلى ما تريه العين من مباحجها الكاذبة ومفاتها الخادعة .

وما يزال الشعراء بعد أبي العتاهية يشدون في قيثاره شعرهم هذا الوتر حين يرثون ، حتى يطلع المتنبي فيضيف وترا جديدا وأنعاما جديدة ، وذلك أنه كان حانقا على الدهر ، لأنه لا يحقق له آماله ، وكانت آماله فوق أن تتحقق ، إذ طلب فيما طلب الملك والسيادة ، فغضب على الدنيا والزمان ، وذهب بهجوها هجاء قبيحا في شعره . وأخذ نفسه بقراءة الفلسفة وما شاع عند العرب ومتفلسفيهم من حِكَم تتصل بالدهر وما يُسرمى به الإنسان من سهام الزمن . فلوّن شعره بألوان فلسفية ، فيها الحكمة وفيها العبارة المنقولة عما قرأ ، ومن هنا اصطبغ رثاؤه بلُصْبَاح لم تكن معهودة للعرب ، كقوله لسيف الدولة يعزيه عن أخته الصغرى :

ولذيدُ الحياة أنفسُ في النَّفْسِ وأشهى من أن يُملَّ وأحلى  
وإذا الشيخُ قال أفَ فما ملَّ حياةً وإنما الضعفَ ملّا  
آلَةُ العيشِ صِحَّةٌ وشبابٌ فإذا وَلَيَا عن المرءِ وَلَى  
أبدأ تَسْتَرِدُّ ما تهب الدُّنْيَا فياليت جُودَها كان بُخْلا

فهو يقول إن ما تستلذه النفوس من الجانب المادي في الحياة يجعلها تستطيلها وتستديمها ولا تملها ، يشير بذلك كما يقول شارحوه إلى ما شاع عند الحكماء من أن النفس تتعلق بالهمم الترابية ، ولا تتعلق بالعالم العلوى إلا إذا شقت وصفت من كدرها . وفي البيت الثاني يؤكد هذا المعنى ، فالشيخ لا يسأم الدنيا وإنما يسأم ضعفه وهرمه . والحياة إنما تطيب — كما يقول في البيت الثالث — بالشباب وصحة الجسم ، فإذا ذهب عن الإنسان فسد عيشه . وفي البيت الرابع يردد حكمة معروفة ونهى : الدنيا تطعم أولادها وتأكلهم . وعلى هذا النحو يربط شراحه دائما بين

شعره وبين الحكيم التي كانت تروى لعهدده عن المتفلسفة والحكماء ، ومن هنا نقول إنه أدخل على القبثارة العربية وقرأ جديدا ، يسقط منه هذا النغم وما يماثله . ولعل أهم مرائيه التي يتضح فيها هذا الجانب مرثيته التي يعزى بها عضد الدولة بن بويه وقد ماتت عمته ، إذ يقول في تضاعيفها :

نحن بنو المَوْتِ فما بالنا نعاْفُ ما لا بُدَّ من شُرْبِهِ  
تَبْخَلُ أَيْدِينَا بأرواحنا على زمانٍ هَيَّ من كَسْبِهِ  
فهذه الأرواح من جَوْهِ هذه الأجسام من تَرْبِهِ  
لوفكر العاشق في مُنتَهَى حُسْنِ الذي يَنْبِيهِ لم يَنْبِهِ  
لم يُرَ قَرْنُ الشمس في شَرْقِهِ فشَكَتِ الأنفُسُ في غَرْبِهِ (١)  
يموتُ راعى الضَّانُ في جهله مَوْتَةً جالينوسَ في طِبِّهِ  
وربما زاد على نُعْمِهِ وزاد في الأَمْنِ على سِرْبِهِ (٢)

وقد أشار السابقون إلى أن البيت الثاني منقول من قول بعض الحكماء . « إذا كان نشوء الأرواح من كروور الأيام ، فما لنا نعاْف رجوعها إلى أماكِنها » وكذلك البيت الثالث مأخوذ من قول أحد الحكماء : « اللطائف سماوية والكثائف أرضية وكل عنصر عائد إلى عنصره » يريد أن الإنسان مركب من جوهر لطيف وجوهر كثيف ، والأول من الجو والهُواء ، والثاني من الأرض والتراب ، وهو نفس ما جاء في بيت المتنبي . وزعموا أن البيت الرابع مشتق من قول بعض الحكماء : « النظر في عواقب الأشياء يزيد في حقائقها ، والعشق عمى الحسَّ عن درك رؤية المعشوق » .

والحقيقة أن الأبيات كلها يظهر عليها أثر القراءة في كتب الفلسفة . ولا ريب في أن المتنبي كان يقرأها ، وقد كان القارِئ أحد خُلَطَّائِهِ في حضرة سيف الدولة ، ولا بد أنه قرأ كتبه ، كما قرأ لغيره من المتفلسفة ، ونقل عما قرأ هذا النقل

( ١ ) قرن الشمس : أول ما يبدو منها .

( ٢ ) السرب هنا : النفس والأولاد .



البدیع ، فشتان بین العبارة الأصلية وما صارت إليه ، فقد أصبحت تلمع وتومض وكأنها النجم الثاقب ، إذ كانت للمتنبى مقبرة لا تبارى في الحشد والتركيز . وانظر إلى البيت الخامس الذى ركز فيه فكرة الفناء وأن حدوث الأشياء يقترن به زوالها ، فقد استعان بصورة قوية لخص فيها كل ما أراد بيانه فن رأى الشمس طالعة عرف أنها لا بد غاربة . وركز فى البيت السادس فكرة أن الموت لا يسلم منه وضعيع ولا شريف ولا جاهل ولا عاقل ولا طيب ولا مطبوب ، وجالينوس طيب وفيلسوف يونانى مشهور . وتوغل فى المعنى ماخرأ ، فقال إن راعى الضأن ربما زاد على جالينوس عمرا ، وكان آمنا على نفسه وولده مع جهله وقلة عمله وعلمه .

وما يزال المتنبى يعرض مثل هذه الأفكار وأن الموت غاية كل حى ، وأن الدنيا ليست إلا طريقا لإليه ، وأن كل إنسان بل كل ما فى الكون ينتهى إلى فساد . ويخلفه أبو العلاء فيجتمع عليه إحساسه الحزين بعاهته وفقد بصره ، وما قرأ فى كتب الفلاسفة عن التشاؤم والزهد فى الدنيا ، وما قرأه عند المتنبى من صخط على الحياة وذم شنيع لها . ويتحول كل ذلك فى قلبه إلى بركان ثائر لا يهدأ ولا يسكن أبدا ، بل ما يزال يلفظ بالحُمَم ، ولا يزال يتطاير شررها فى شعره . ومن أروع مراثيه قصيدته التى يرثى بها فقيرا حنفيا ، وهى تنفجر مند مطلعها بهذا السيل الحزين ، إذ يقول :

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتَادِي نَوْحُ بِالْكَرِّ وَلَا تَرْتُمُ شَادِي<sup>(١)</sup>  
 وَشَبِيهُ صَوْتِ النَّعْمَى إِذَا قِيدَسَ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِي  
 أَبَكْتَ تَلَكُمُ الْحَمَامَةُ أَمْ غَنَّتْ عَلَى قَرَعِ غُصْنِهَا اللَّيَادِ  
 صَاحُ هَذِي قُبُورُنَا تَمَلُّ الرُّحْبَ قَائِنِ الْقُبُورِ مِنْ عَهْدِ عَادِ<sup>(٢)</sup>  
 خَفَّفِ الْوَطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْإَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ

( ١ ) الشاذى : الملقى .

( ٢ ) عاد : من القبائل العربية القديمة التى هادت

وقبيحٌ بنا وإن قَدُمَ العهدُ      دُ هوانُ الآباءِ والأجدادِ  
 سِرٌّ إن اسطعتَ في الهواءِ رُوَيْدًا      لا اختيلا على وفاتِ العبادِ<sup>(١)</sup>  
 رَبُّ لَحْدٍ قد صارَ لحدًّا مرارًا      ضاحكٍ من تزامِ الأضدادِ  
 ودفينٍ على بقايا دفينٍ      في طويلِ الأزمانِ والآبادِ  
 تعبٌ كُلُّها الحياةُ فما أغـ      جَبُّ إلا من راغبٍ في ازديادِ  
 إن حزنًا في ساعة الموتِ أضعا      ف سرورٍ في ساعة الميلادِ  
 خُلقَ الناسُ للبقاء فضلتُ      أمةٌ يحسبونهم للنفادِ  
 إنما يُنقلون من دارِ أعمى      لـ إلى دارِ شِقْوَةٍ أورشادِ  
 ضجعةُ الموتِ رقدةٌ يَسْتريحُ الـ      جِسمُ فيها والعيشُ مثلُ الشهادِ

فهو يقول إن فوج الباكي الحزين وغناء الشادى الفرح كلاهما لا يفيد  
 الإنسان ولا يحمديه نفعا في هذه الحياة المظلمة البائسة الشقية ، وإنه ليسمع فيجد  
 صوت الناعى التاكل كصوت البشير المهنيء ، فالصوتان يتشابهان في  
 كل شيء ، وهذا الحمام طالما قال الشعراء إنه ينوح ، وأبو العلاء لا يستطيع أن  
 يجزم بذلك ، فهو لا يبرى أينوح أم يغنى . إن الغناء والنواح جميعا يتشابهان  
 عليه ، كما تشابه الدنيا في مسراتها وأحزانها ، فهي جميعا تستوى وتتحد في رأيه ،  
 وتكون هذا الظلام المطبق الذى يضغط على أنفاسه .

ويلتفت إلى سامعه وقارئة ليريه أن الدنيا كلها ليست إلا جنازة قائمة ومقبرة  
 كبيرة تمتد من أقدم العهود ، من عهد عاد إلى عهده ، وغاية الأمر أن كثيرا من  
 أجزائها انمحت معالمه ، ففسير اليوم عليه غافلين ، وما أحرانا أن نسير هونا ،  
 لأننا نسير على أديم مؤلف من أجساد الآباء والأجداد ، وأولى بنا أن نكرمه وأن  
 لا نهينه حفظا لحقوق الأسلاف . ويسخر منخرسته الرائعة من أن اللحد الواحد قد  
 يضم أشخاصا متباينين بين صالح وطالح وجاهل وعالم وغنى وفقير ، حتى إن  
 اللحد نفسه ليضحك ويعجب من اجتماع الأخيار والأشرار فيه .

وواضح أن الآيات تحمل تشاؤم أبي العلاء وشكته في الخير والشر وازدراءه للعالمية وكل ما فيها . وبعد أن بلغ بنا هذا المبلغ من السخط عليها لما تحمل من شقاء الإنسان وعذابه أخذ يعجب لمن يرغب فيها مع كل هذا الأذى ومن يريد أن تطول مدته فيها مع كل هذه التعاسة . وقارن بين السرور في الميلاد والحزن في الموت فوجد الثاني يزيد الأول أضعافاً مضاعفة ، وما الحياة كلها في رأيه إلا سجون من الحزن والضيق وضيايب من الألم والعذاب .

واطمأنت نفسه بعض الاطمئنان ، فتحدث عن بقاء الإنسان بعد الموت ، فقرر خلوده ، وردّ قول من يقول بالفناء ومن ينكرون البعث والحساب والنعم والجحيم والجنة والنار ، فالناس خلّقوا للأبد والبقاء دون الفناء ، وما الموت إلا انتقال من دار إلى دار ، هي دار الخلود التي فيها يعذب الجاني الشقي وينعم الراشد السعيد . وانتهى في البيت الأخير إلى تشبيه الحياة باليقظة والموت بالنوم ، وكأنه يفضل الموت على الحياة ، فالعين ترتاح إلى النوم ولا ترتاح إلى السهد ، بل تشقى به وتتعب .

وهذه الأفكار والمعاني الدائرة حول الحياة والموت والخلود التي تناولها أبو العاتية والمنتبي وأبو العلاء تعلّق بها شعراء الرثاء في الأقطار الإسلامية المختلفة ، فأينما وليت وجهك رأيت أرباباً منها في رثاء الشعراء ، إذ أعجبوا بها إعجاباً لا حد له ، فذهبوا يطوفون حولها ، ويتشبهون بها ، ويستوردون في أشعارهم منها ، وخاصة من المنتبي وأبي العلاء ، فقد عنت لهما وجوه الشعراء على مر العصور ، وأصبحت المورد الذي لا ينفد ، والكثرة الذي لا يقنى .

ومن أفاد منهما لعصرنا في مراثيه شوقي ، فإله عنى بقراءة شعرهما ، والاحتذاء على مثاله ، في كل ما نظم وصاغ من قصيد . وعاش يقلد المنتبي خاصة في حكمه وكثرة ما ينثر منها في شعره .

وقد نقل ظاهراً من أفكار أبي العلاء ، وإن لم يكن له تشاؤمه ولا بؤسه ، ولكن ما يزال يعنى بتقليده ونقل بعض أفكاره ، وأقرأ لهذه المقدمة في رثاء جدته :

خُلِقْنَا للحياة وللمماتِ ومن هذين كلُّ الحادثاتِ  
ومن يُؤلّد يعيش ويمت كأن لم يمر خياله بالكائناتِ

ومَهْدُ المرءِ في أيدي الرِّواقِ      كنش المرء بين النائمات (١)  
وما سَلِمَ الوليدُ من اشتكاه      فهل يخلو المعمرُ من أذاه  
هي الدنيا قتالٌ نحن فيه      مقاصدُ للحسامِ وللقناة  
وكلُّ الناسِ مدفوعٌ إليه      كما دُفِعَ الجبانُ إلى الثباتِ  
نَزَّوعٌ ما نزَّوعٌ ثم نُرْمَى      بسهمٍ من يدِ المقدوراتِ

وتستطيع أن تلاحظ المشابهة بين هذه الأبيات وبعض أبيات أبي العلاء السابقة ، ولكنه إنما يتناول ظاهرا منها ، لأنه لم يكن عميق الفكر مثله ، ولا كان له فلسفته ولا بؤسه النفسى . وقد ذهب يكثر — على شاكلة المنبى — من الحكم ، ومن طريف ما جاء به منها في مراثيه قوله في مرثية محمد فريد التتى صاغها صباغة على نمط مرثية أبي العلاء السابقة :

كرةُ الأرضِ كم رَمَتْ صَوْلَجَانَا      وطوتُ من ملاعبٍ وحيادِ  
والفبارُ الذى على صفحتها      دَوْرانُ الرَّحَى على الأجسادِ

ويقول في رثاء مصطفى كامل :

دَقَاتُ قَلْبِ المرءِ قاتلةٌ له      إن الحياة دقائق وثوانِ  
فارْفَعَ لنفسك بعد موتك ذكراها      فالذِّكْرُ للإنسان عُمرٌ ثانِ

ولكن هذه الحكم وما يشبهها عنده ليست ثمرة غضب على الحياة ولا زهد فيها ، وهى لذلك لا تكون لها روعتها عند الشعراء الثلاثة السابقين ، فقد كان المتنبي برما سخطا على الحياة بل ناثرا ثورة عنيفة ، ولذلك كان ذمه فيها طبعيا ، وكذلك ذمُّ أبي العتاهية وأبي العلاء ، إذ كانا رافضين لها زاهدين فيها زهدا حقيقيا ، فطبعى أن يشوهوها وأن يقبحوها وأن لا يروا منها إلا الجانب

الأسود البغيض ، أما شوقي فشئء من ذلك كله لم يكن كامناً في نفسه ، ولذلك يبدو فيه التكلف والتصنع وأن الأفكار لا تنبع من قلبه ، ولا تجري من داخله ، ولولا مهارته الموسيقية وإبداعه الفني لبان عجزه وضعفه وتكلفه .

وربما كان نسيب عريضة الشاعر المهجري أهم المعاصرين تعبيراً في وراثته عن الخلود ، فله مرات في أخيه ، بكاء فيها ، وليس هذا ما يهمنا ، إنما يهمنا أنه وقف عند فكرة الصراع بين الجسد والروح وأطال الوقوف نافذاً إلى فكرة الخلود . وخير ما يصور ذلك مراثيته «ذكرى الغريب» وهو يفتتحها على هذه الشاكلة :

غريبٌ على الباب يرجو الدخولاً	أثار النوى فيه شوقاً طويلاً
ألا أدخلوه أهيلَ الخلودِ	إليكم ولا تحرموه مقيلاً <sup>(١)</sup>
قضى العمرَ في العتية في القفر حتى	تفتت الحياةُ فألقى السيلاً
وأبصر أنواركم في اشتعالٍ	فسار إليها يروم الوصولاً
أهيلَ الخلود افتحوا فهو منكم	وهيبات عن بابكم أن يميلاً
تغرب في الأرض عمراً قصيراً	ولم يك في الناس إلا دخيلاً
تخلص لا آسفاً من حجام	وحطّم أشراكهم والكبولا
وأغفل في الأرض أهلاً وربّما	وألقى رداء التراب الثقيلاً

والمرثية طويلة ، وهي تدور كلها حول المعاني التي نراها هنا ، فأخوه قد اغترب حقبة من الزمن في الأرض ، وكأنه كان في تيه أو في قفّر ، ومع ذلك كان لا يزال يرقب أنوار الخلود ، ويتوجه إليها مصعبداً في الدّرب ، وما زال يرقى على الدّرج حتى قرع الباب يريد الدخول والوصول . وها هو ذا قد وصل بعد تأيه واغترابه وبعد أن تخلص من سور التراب وأشراكه . ولا ريب في أننا نستشف هنا نزعة صوفية ، وهي تتغلغل في شعر نسيب ، وتجعل لراثته صورة روحية جديدة في شعرنا ، تخالف الصورة التي رأيناها عند الشعراء السابقين .

(١) المقيلاً : المكان الذي نستريح فيه وقت القيلولة .

## الفهرست

صفحة	
٥	مقدمة
١١ — ٧	تمهيد
٧	(١) الرثاء في أدبنا العربي
٩	(٢) في الآداب العالمية
٥٣ — ١٢	الفصل الأول : النذب
١٢	(١) معنى النذب
١٣	(٢) نذب الأهل والأقارب
٣٠	(٣) نذب الشعراء أنفسهم
٣٥	(٤) نذب الرسول صلى الله عليه وسلم وآل البيت الكريم
٤٠	(٥) نذب الدول
٤٧	(٦) نذب البلدان
٨٥ — ٥٤	الفصل الثاني : التأيين
٥٤	(١) معنى التأيين
٥٥	(٢) تأيين الخلفاء والوزراء
٦٢	(٣) تأيين الأشراف والأجواد والقواد
٧٠	(٤) تأيين العلماء والأدباء
٨١	(٥) حفلات التأيين الحديثة
١٠٧ — ٨٦	الفصل الثالث : العزاء
٨٦	(١) معنى العزاء
٨٨	(٢) العزاء في الأهل
٩٦	(٣) العزاء والتهنئة
٩٩	(٤) الحياة والموت والخلود

## كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

### في الدراسات القرآنية

- \* سورة الرحمن وسور قصار عرض ودراسة

الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

### في تاريخ الأدب العربي

- \* العصر الجاهلي

الطبعة الحادية عشرة ٤٣٦ صفحة

- \* العصر الإسلامي

الطبعة العاشرة ٤٦٦ صفحة

- \* العصر العباسي الأول

الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة

- \* العصر العباسي الثاني

الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة

- \* عصر الدول والإمارات ( ١ )

الجزيرة العربية - العراق - إيران

الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة

- \* عصر الدول والإمارات ( ٢ )

مصر - الشام

الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة

### في مكتبة الدراسات الأدبية

- \* الفن ومذاهبه في الشعر العربي

الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة

- \* الفن ومذاهبه في النثر العربي

الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة

- \* التطور والتجديد في الشعر الأموي

الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة

- \* دراسات في الشعر العربي المعاصر

الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة

- \* شوقي شاعر العصر الحديث

الطبعة العاشرة ٢٨٦ صفحة

- \* الأدب العربي المعاصر في مصر

الطبعة الثامنة ٣٠٨ صفحات

- \* البارودي رائد الشعر الحديث

الطبعة الرابعة ٢٢٢ صفحة

- \* الشعر والغناء في المدينته ومكة لعصر بني أمية

الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة

- \* البحث الأدبي : طبيعته - مناهجه - أصوله - مصادره

الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة

- \* الشعر وطوايعه الشعبية على مر العصور

الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

### في الدراسات النقدية

- \* في النقد الأدبي

الطبعة السادسة ٢٥٠ صفحة

- \* فصول في الشعر بتوقيده

الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

### في الدراسات البلاغية واللغوية

- \* البلاغة : تطور وتاريخ

الطبعة السادسة ٣٨٠ صفحة

- \* المدارس النحوية

الطبعة الخامسة ٣٧٦ صفحة

- \* تجديد النحو

الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة

- \* تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديد

الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحة

### في مجموعة نوابع الفكر العربي

- \* ابن زيدون

الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

## في مجموعة فنون الأدب العربي

\* الرثاء

الطبعة الثالثة ١١٢ صفحات

\* المقامة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحة

\* النقد

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

\* الترجمة الشخصية

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

\* الرحلات

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

## في التراث المحقق

\* المغرب في حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

\* كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحة

\* كتاب الرد على الفحاة

الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة

\* الدرر في اختصار المغازي والسير

لابن عبد البر

الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة

في سلسلة اقرأ

\* العقاد

الطبعة الرابعة

\* البطولة في الشعر العربي

الطبعة الثانية

\* معى

الطبعة الثانية

\* الفكاهة في مصر

الطبعة الثانية



١٩٨٧ / ٣٠١٠	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٩٩٠-٨	الترقيم الدولي

١ / ٨٧ / ٣٠

مطبع بطنايح دار المعارف (ج.م.ع.١٠)





## هذه المجموعة

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للقارئ العربي ألواناً من الفنون الأدبية التي عالجها الأدب العربي في مختلف أقطاره وعصوره ، فهي تقف أمام كل فن أدبي فتعالجه في جزء أو أكثر من هذه السلسلة التي سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التي تكون في مجموعها ذلك الهيكل الأدبي الضخم الذي شيدته العربية في تاريخها الطويل .

وقد فضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربي لا على طريقة السين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا في كتب التاريخ الأدبي ... ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون ... فللمقامة موضوع ، وللقصة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع ... وهكذا تكبر هذه المجموعة على قدر ما في الأدب العربي من فنون .

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)